الموت في الشعر الحديث

الدكتور
حسن أحمد عبد الحميد عبد السلام

١٩٩٦ م

رقم الإيداع بدار الكتب
٨١٩٧ - ١٩٩٦م
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 19 - 1243 - 7



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد فبضع صفحات لاتجاوز عشراً كتبتها في رسالتي للدكتوراه يمكن أن تكون بذرة هذا الكتاب.

وما كنت ناوياً العودة إلى هذه البذرة لاستحيائها، وتربيتها، لكن خطباً جللاً ساقته الأقدار إلي، استعاد تلك البذرة، وألقى بها بين عيني، واستنبتها في نفسي ونماها حتى صارت البذرة شجرة باسقة هي هذا الكتاب.

ولقد أدركت أن موضوع (الموت) غني جداً، وأن ماكنت كتبته لايمثل غير قطرة من بحر.

ولقد جاء هذا الكتاب في ستة فصول.

الأول : الموت بين العموم والخصوص

والعموم يعني الإحساس بموت الأمة عامة، بعد أن وصلت إلى حالة من الضعف صح معها أن توصف بالموت.

والخصوص يعني الإحساس الخاص بكل شاعر، حسب المؤثرات التي تعرض لها، والتي دفعت بعض الشعراء إلى تمني الموت، وبعضهم إلى الانتحار، وبعضهم إلى محاولته.

الفصل الثاني : الموت أمنية

وفيه تناولت ظاهرة الحزن واليأس التي شاعت عند كثير من الشعراء في

العصر الحديث خاصة طلائع المجددين والتي كان من نتيجتها إفراطهم في إطراء الموت وتمنيه بوصفه مخلصاً من عنت الحياة.

الفصل الثالث : الموت قضية

وبحثت فيه رأي بعض الشعراء في الموت وموقفهم منه مبيناً أن محاولة فهم سر الموت بعيداً عن هدى الدين لاتؤدى إلا إلى الحيرة والضلال .

الفصل الرابع : ما بعد الموت

وفيه تناولت بعض القصائد التي تحدثت عن العالم الآخر بداية بالنعش، ثم القبر، وعالم البرزخ، ثم البعث.

الفصل الخامس : الموت تخيلاً ورثاء النفس

وقد أحصيت فيه الشعراء الذين رثوا أنفسهم في العصر الحديث، وقد بلغ عددهم أربعة عشر شاعراً كتبوا أكثر من عشرين قصيدة في رثاء أنفسهم بطرائق شتى.

الفصل السادس : ملاحظات ومناقشات

وفيه تناولت أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف بين شعر الموت في القديم وشعر الموت في العصر الحديث ، ثم توقفت مع كتاب (رثاء النفس في الشعر العربي) مناقشاً بعض ماورد فيه من آراء، وجدت أنها في حاجة إلى مراجعة.

ولاأدعي أنني بهذا الكتاب قلت كل ما يمكن قوله عن شعر الموت في العصر الحديث، لكن حسبي أني بذلت ما وسعته طاقتي، وكتبت ما استطاعه بياني.ومن الله أرجو التوفيق والفلاح.

د. حسن عبد السلام

الفصل الأول

الموت بين العموم والخصوص

(معنى الموت فى اللغة -موت الأمة- أثر ذلك فى عواطف الشعراء- نوازل مميتة وأحداث جسيمة- الشعراء يتحدثون عن موت الأمة- البارودى- شوقى- حافظ- الخطيب- الزهاوى- ميخائيل نعيمه- محمود غنيم- نجيب الكيلانى- فاروق جويدة- عبد الرحمن العشماوى- أحوال الأمة أرض خصبة لنبتة الحزن والثقافة الوافدة غذتها- شعراء تمنوا الموت، وبعضهم قتلوا أنفسهم- وبعضهم حاول ذلك) .



الموت في اللغة

تدل مادة (م ـ و ـ ت) في لغة العرب على مفارقة الحياة، وعلى الخمود والجهل والسكون.

ورد في اللسان:

«الموت والموَتَان: ضد الحياة.. ورجل ميِّت ومَيْتٌ، وقيل: المَيْت: الذى مات، والميِّت والمائت: الذى لم يمت بعد...

وجمع بين اللغتين عدى بن الرعلاء، فقال:

ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ إنما المَيْتُ ميِّت الأحياء

إنما المَيْت من يعيش شقيًا كاسفًا باله قليل الرجاء

فأناس يمصصون ثمادًا وأناس حلوقهم في الماء

فجعل الميت كالميت. وقوم موتى وأموات وميِّتون وميْتون. وقوله تعالى: ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت** ﴾ إنما معناه، والله أعلم، أسباب الموت، إذ لو جاءه الموت نفسه لمات به لا محالة.

والموت: السكون. وكل ما سكن فقد مات، وهو على المثل. وماتت النار موتًا: برد رمادها، فلم يبق من الجمر شيء، ومات الحر والبرد: باخ. وماتت الريح: ركدت وسكنت. وماتت الخمر: سكن غليانها ومات الماء بهذا المكان إذا نشفته الأرض، وكل ذلك على المثل.

وفى حديث دعاء الانتباه: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور». سمى النوم موتًا لأنه يزول معه العقل والحركة تمثيلاً وتشبيهًا لا تحقيقًا. وقيل: الموت فى كلام العرب يطلق على السكون، يقال: ماتت الريح، أى

سكنت. قال: والموت يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة: فمنها ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة فى الحيوان والنبات، كقوله تعالى: ﴿ **يحيى الأرض بعد موتها** ﴾؛ ومنها زوال القوة الحسية، كقوله تعالى: ﴿ **يا ليتنى مت قبل هذا** ﴾ ومنها زوال القوة العاقلة، وهي الجهالة، كقوله تعالى: ﴿ **أو من كان ميتًا فأحييناه** ﴾، ﴿ **إنك لا تسمع الموتى** ﴾، ومنها الحزن والخوف المكدر للحياة كقوله تعالى: ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت** ﴾، ومنها المنام، كقوله تعالى: ﴿ **والتى لم تمت فى منامها** ﴾ . . وقد يستعار الموت للأحوال الشاقة: كالفقر والذل والسؤال والهرم والمعصية، وغير ذلك.

ورجل موتان الفؤاد: غير ذكي ولا فهم، كأن حرارة فهمه بردت فماتت»[1] أ.هـ.

موت الأمة

ولهذا صح أن يطلق وصف الموت على أمة العرب في تاريخها الحديث الذي يمثل دورة من دورات التخلف المشين، والعجز المقيت. وموت الأمة أثر في عواطف الشعراء بصور متعددة، فمنهم من أحس بهذا الموت، فحاول أن ينبه الأمة له، وأن يحذرها منه، ومنهم من انكفأ على نفسه، واسودت في عينيه الحياة، ورأى فى الموت الحقيقى منجاة من هموم الدنيا وأكدارها، ومنهم من نعى حظه وبكى عيشه ورثى نفسه، وبعضهم شغلت قضية الموت فكره، فأخذ يتأمله، ويتفكر فيما بعده.وأحيانًا تجتمع هذه المواقف جميعًا فى شعر الواحد منهم.

ولا شك أن اختلاف المواقف على هذا النحو تابع لاختلاف المؤثرات الخاصة، المتمثلة في ثقافة الشاعر، وظروفه الشخصية، وحالته النفسية.

ويبقى مع ذلك الإحساس بموت الأمة هو المصدر العام والمؤثر الأول،

---

(١) انظر: لسان العرب –مادة (م و ت).

الذي منه نشأت أكثر هاتيك المواقف.

لقد تعرضت الأمة لعديد من النوازل، كانت كل واحدة منها مصيبة مميتة.

أولى هذه النوازل: جثوم الاحتلال الأوربى على صدرها، واجتهاده في إضعاف عقائدها وأخلاقها، وتضييع لغتها وثقافتها، وتربية صنائع له من أبنائها، يعملون بمشورته، ويلتزمون بخطته، حتى إذا ما رحل، خلفه هؤلاء في السير على المنهج المرسوم والطريق الموسوم.

ثانيها: سقوط الخلافة الإسلامية التي كانت رمزًا لوحدة الأمة وراية تجتمع حولها أقطارها، وبسقوطها انفرط العقد، وتفرقت الشعوب، وضاعت معالم طريقها.

ثالثها: قيام دولة إسرائيل في أرض فلسطين سنة ١٩٤٨م لتكون خنجرًا مسمومًا في صدر الأمة، ينفث السم في سائر جسدها فتصاب بالعجز التام.

رابعها: الهزيمة الماحقة التى لقيها العرب من اليهود سنة ١٩٦٧.

خامسها: حرب الخليج الأولى سنة ١٩٨١ - ١٩٨٧م.

سادسها: حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١م.

وقل عن هذه الأخيرة سادسة الأثافي، والعرب قديمًا كانوا يعدون الأثافي ثلاثًا!

وتتخلل هذه النوازل الجسام خطوب عظام تتلخص أسبابها في استبداد الرعاة وظلمهم وعمى بصائرهم، وغفلة الرعية وجهلهم واستكانتهم.

وهذه المعادلة البسيطة التى طرفاها الحكام والمحكومون أنتجت أحداثًا معقدة، ومشكلات متشابكة، وأمراضًا تعيي الأطباء، وأحوالاً تحير الحكماء، وأهوالاً تصدع القلب، وتدهش اللب، من ذلك مثلاً: الفقر المدقع الذي جعل الأمة - في مجموعها - وعلى الرغم مما في باطن أرضها وعلى ظهرها من ثروات -

عالة في غذائها وكسائها، وأكثر وسائل عيشها على الآخرين.

والجهل المعيب الذي ضاعت في ظلماته الحقوق والواجبات، وراجت في أسواقه الأباطيل.

والحروب الأهلية الطاحنة، والفتن المظلمة، التي امتلأت السجون بضحاياها. وارتوت الأرض بدماء قتلاها.

هكذا أصبحت حياة الأمة قبراً يحتويها، يقف الأعداء على شفيره يزينون لها أمرها، ويموهون عليها حقيقتها، ويكذبون عليها بأفانين من الكذب المجرب، والأمة الميتة تصدق. أولا تملك إلا أن تصدق! ومن عجب أن هذا الموت شمل الأمة من مشرقها إلى مغربها، وفي ذلك دلالة على أن هذه الأمة مصيرها واحد وغاياتها واحدة، وإذن لابد أن يكون طريقها إلى النجاة وإلى الحياة واحدًا!

في مصر، وفي الشام، وفي العراق، وفي المغرب، وفي الجزيرة.

تحدث الشعراء بلسان واحد، كأنهم جميعًا يتناوحون في المأتم، أو يقفون على شفا القبر، يدعون الأمة إلى اليقظة، وإلى البعث، وينفرونها من الموت.

من البارودي (ت ١٩٠٤م، إلى نجيب الكيلاني، وعبد الرحمن العشماوي، وفاروق جويدة، وغيرهم من الشعراء المعاصرين.

يصطف شعراء العرب، صارخين في الأمة، مستنهضين إياها. واصفين أحوال الخمود والجمود والتحلل والعفن، متحدثين عن الأشلاء والجماجم والقبور والكفن، مستمسكين بخيوط من الأمل، داعين الأمة إلى أن تحقق في كيانها صفات الأحياء بالجد والعمل، فالبارودي يدعو قومه إلى الثورة على الظلم والهوان، ويستنكر رضاهم بالذل، لكن دعوته لم تجد ملبيًا، وصوته ارتد إليه دون مجيب، فالقوم كالتماثيل التي لا تسمع ولا تعي، يقول محمود سامي البارودي[1]:

---

(١) ديوانه جـ ٢ ص ١٩٢-١٩٣. ط وزارة المعارف بالقاهرة.

فـيـا قـوم هبـوا إنمـا العـمـر فـرصـة
وفـي الدهـر طـرق جـمـة ومنافعُ
أصـبـراً علىٰ مسِّ الهـوان وأنتـمـو
عـديـد الحـصىٰ إني إلىٰ الله راجعُ
فكونوا حـصـيـداً خـامـدين أو افـزعـوا
إلىٰ الحـرب حـتىٰ يدفع الضـيـم دافعُ
أهبتُ فـعـاد الصـوت لم يقض حـاجـة
إليَّ ولبـانـي الصـدىٰ هـو طائع
فـلـم أدر أن الله صـور قـبلكـم
تمـاثيـل لم يخلـق لهن مـسـامعُ

ويتعجب شوقي من حال أمته التي طال رقادها، ومن حولها شعوب هبت من منيتها، ويطلب من الله - عز وجل - أن يلطف بها في محنتها، فيقول: [1]

يا رب هبَّتْ شـعـوب من منيَّتِهـا
واسـتـيـقظت أمم من رقـدة العـدمِ
رأىٰ قـضـاؤك فـيـنا رأىٰ حكمـتـه
أكـرم بوجـهك من قـاضٍ ومنتـقـمِ
فـالطف لأجل رسـول العـالمـين بنا
ولا تزد قـومـه خـسـفًا ولا تسُمِ
يا رب أحـسـنتَ بدء المـسـلمـين به
فـتـمم الفـضـل وامنح حـسن مـخـتـتـمِ

---

(1) الشوقيات جـ1 ص 208، المكتبة التجارية بالقاهرة.

ويشبه شوقي شعوب المسلمين بأصحاب الكهف، في سباتهم العميق، لأنهم موتى بين الأحياء، يضربون في الظلمات، مع أنهم يملكون نور الكتاب ونور السنة!!

شعوبك في شرق البلاد وغربها
كأصحاب كهف في عميق سبات
بأيمانهم نوران ذكر وسنة
فما بالهم في حالك الظلمات[1]

ويرصد حافظ إبراهيم مظاهر الموت في أمته، ويتبين أسباب موت الأفراد، وأسباب موت الشعوب، ويجد أن هذه الأسباب أصابت أمته في أفرادها وشعوبها، فلا عجب إذن من ترديها في البأساء عامًا بعد عام، وإصابتها بأمراض تستعصي على الشفاء، فيقول:

أرى شعبًا بمدرجة العوادي
تمخخ عظمه داء عقام
إذا ما مر بالبأساء عام
أطل عليه بالبأساء عام
سرى داء التواكل فيه حتى
تخطف رزقه ذاك الرخام
قد استعصى على الحكماء منا
كما استعصى على الطب الجذام
هلاك الفرد منشؤه توان
وموت الشعب منشؤه انقسام
وإنا قد ونينا وانقسمنا
فلا سعي هناك ولا وئام

---

(١) الشوقيات جـ١ ص ١٠١.

فـــــــاء مـــقـــامنا في أرض مـــصـــر
وطاب لغــيــرنا فــيــهــا المــقــام
فــــــلا عـــــجب إذا ملكت علينا
مــــذاهبنا وأكــــثــــرنا نيــام[1]

ويثور أحمد محرم على الأحوال المتردية التي وصلت إليها أمته، ويرى أنه لا فرق بين الحياة الذليلة التى يحياها قومه والموت فيقول: [2]

يا مــصــر مــاذا تطلبــين أمــاكــفى
أن تصــبــحي للعــاديات طعــامــا
مــوتى فــمــا مــوت العليل بضــائر
وكــفى بآلام الحــيــاة حــمــامــا

ويتذكر محرم المجد القديم للمسلمين، ويحزنه ما آل إليه حالهم فيقول: [3]

تذكــر مــاضي دينه فــتــوجــعــا
وأحــزنه مــا نابه فــتــفــجــعــا
وأهلكه من قــومــه أن قــومــه
بعــمــيــاء يأبى غــمــيــهــا أن يقــشــعــا

والدين في رأى محرم هو الروح الذي يحيي النفوس، وأن الأمة إذا أعرضت عنه ماتت: [4]

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم جـ ٢ ص ٥٥. دار العودة - بيروت.
(٢) شاعر العروبة والإسلام الجيوشي- ص ١٥٥- مكتبة دار العروبة، ١٣٨١هـ-١٩٦١م.
(٣) شاعر العروبة والإسلام، ص ١٢٣.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٢.

هل الدين إلا الروح يحيي نفوسنا
حياة ترينا ما حلَ العيش ممرعا
هو الدين إن يذهب فلا عز بعده
وإن جد ساعينا على إثر من سعى

أما فؤاد الخطيب فيرى أن معاقل قومه خلت من الرجال وأن ديارهم صارت أطلالاً ودمنًا تسكنها البوم، وأنهم موتى فقراء، تعوزهم فضلة الكفن، فيقول: (١)

إن المعاقل أقوت والديار خلت
وأعوز العرب حتى فضلة الكفن
ويَلُمِّهَا قصة عن هول فاجعة
رواتها البوم في الأطلال والدمن

وفي موضع آخر يتهكم الخطيب من قومه الذين فقدوا كل صفات الأحياء، فأصبحوا كالرمم، فيقول: (٢)

والشرق يضؤل والأهواء تحزبه
فليت شعري أعرب فيه أم رمم

وفي العراق يرثي جميل صدقي الزهاوي وطنه فيقول: (٣)

ألا رعى الله أوطانًا لنا انتهكت
محبوبة السهل والوديان والكثب
قد أضرم الجور نارًا في جوانبها
وأهلها بين نفاخ ومحتطب

---

(١) ديوان الخطيب ص ٢٦٢، ط دار المعارف بمصر ١٣٧٥هـ -١٩٥٩م.
(٢) الديوان ص ٢٦.
(٣) انظر الشعر العراقي الحديث- د. يوسف عز الدين، ص ١٣٢- الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥م.

ويصرخ في قومه منبهًا إياهم إلى مأساتهم، باكيًا قومه وبلاده قائلاً:[١]

أيهـــا القـــوم أيهـــا القـــوم أنتم
أمـــة ســـاقطون فـي مـــهـــواة
أيهـــا الـظـلم هـل زمـــانك مـــاض
أيهـــا الـعـــدل هـل زمـــانـك آت
وســـأبكي قـــومـي وأبـكي بـلادي
وقـــبـــور الأبناء والأمـــهـــات

ويصور ميخائيل نعيمه حال الأمة العربية بعد الحرب العالمية الأولى، وكيف ساقها أعداؤها معصوبة الأعين كالقطيع، إلى حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل، ثم تركوا لها المغارم والضحايا، وانفردوا هم بالمغانم والمزايا، وليس بعد ذلك من الخزي والعار مبلغ تبلغه أمة من الأمم، ولذا فقد رأى الشاعر أن بني قومه جميعًا يستحقون الدفن. لا فرق بين ميت منهم وحي. يقول نعيمة مخاطبًا أخاه العربي:[٢]

أخي !! إن ضج بعـد الحـرب غـربي بأعـمـاله
وقـــدّس ذكـــر من مـــاتوا وعظم بطش أبطاله
فـــلا تهـــزج لمن ســـادوا ولا تشـــمت بمن دانا
بل اركع صـــامـــتًا مـــثلي بقلب خـــاشع دامي
لنبكي حظ موتانا
أخي!! إن عـــاد بعـــد الحـــرب جندي لأوطانه
وألقى جـســمـه المنهـوك في أحـضـان خـلانه

---

(١) نفسه ص ١٣٣.
(٢) انظر النقد الأدبي الحديث. د. محمد غنيمي هلال ص٣٧٥ النهضة العربية القاهرة ١٩٧٩م

فـــلا تطلب إذا مـــا عـــدت للأوطان خـــلانا

لأن الجـــوع لم يتـــرك لنا صـــحـــبًا نناجـــيـــهم

سوى أشباح موتانا

أخي!! قـــد تـم مـــا لو لـم نشـــأه نـحن مـــاتمـــا

وقـــد عم البـــلاء ولو أردنا نحن مـــا عـــمـــا

فـــلا تندب فـــأذن الـغـــيـــر لا تصـــغى لشكوانا

بل اتبـــعني لنحـــفـــر خندقًا بالرفش والمـــعـــول

نواري فيه موتانا

أخي مـن نحـن؟ لا وطن ولا أهـل ولا جـــــار

إذا نمنا، إذا قـــمنا، ردانا الخـــزي والعـــار

لقـد خمت بنا الدنيا كما خمت بموتانا[1]

فـــــهـــــات الرفـش واتبـــــعني

لنحـــــفـــــر خندقًا آخـــــر

نـواري فـــيـــه أحـــيـــانا

ويتعجب محمود غنيم من تبدل حال العرب من العز إلى الذل ويقرن بين العروبة والإسلام فيقول: [2]

ويح العـــروبة كـــان الكون مـــسـرحـــهـــا

فـــأصـــبـــحت تتـــوارى في زواياه

---

(١) في اللسان: خم اللحم: تغيرت رائحته ولما يفسد.

(٢) انظر شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث جـ٢ ص ٦٩، أحمد الجدع، حسني جرار، مؤسسة الرسالة - بيروت.

أني اتجهت إلى الإسلام في بلد

تجده كالطير مقصوصًا جناحاه

ويتوجه نجيب الكيلاني إلى ربه في ضراعة يشكو له زمانًا بلا ربيع، وموتًا طويلاً، وبعثًا بطيئًا، وتقهقراً إلى الوراء، يجلب الشقاء والوجوم والألم والندم، فيقول: [١]

زمـاننا بلا ربيع

يرتل الأحزان للخريف

معزوفة القطيع

ونرتدي الأكفان من سنين

والبعث - يا مليكنا - ضنين

العجز سرج بنا إلى الشقاء

نسير للوراء

قوافل بلا حداء

الحق.. أننا لا نعرف الغناء

الصمت والوجوم والألم

تجرنا تجرنا

إلى متاهة الندم

وفي شعر فاروق جويدة تتجسد مأساة الأمة الميتة في ضياع الأرض والوطن، بسبب الخوف والقهر والزيف، ويرى الشاعر أمته (موتى بلا قبور) فيقول: [٢]

---

(١) من قصيدة (ضراعة) في ديوان: مهاجر، ص ١٠، بيروت ١٩٨٧م.

(٢) الأعمال الكاملة. ق (موتى بلا قبور) ص ٣٤٢، مركز الأهرام للترجمة والنشر، سنة ١٩٨٧م.

كـثـيـرون مـاتوا . . بكينا عليـهم
أقـمنا عليـهم صـلاة الرحـيل
وقلنا مع الناس صـبـراً جـمـيـلاً
فـهل كل صـبـر لدينا جـمـيل؟
قـرأنا الفـواتح بين البـخـور
وقلنا الحـيـاة مـتـاع قليل
نثـرنا الفطائر فـوق القـبـور
وفي الأرض تبكي ظلال النخـيل
كـثـيـرون مـاتوا
أهلنا عليـهم تلال التـراب
ولكننا لم نمت بعـد لكن
لمـاذا يهـال علينا التـراب؟!
فـمـا زلت حـيًا
ولكن رأسي بقـايا ضـريح
ومـا زلت أمـشي
يقـيـد خطوي درب كـسيح
ويـنـبـض قـلـبي
وإن كنت أحـيـا . . بقلب ذبيح

والمزج بين موت الأمة وموت الفرد واضح جدًا في هذه القصيدة، يدل عليه استخدام ضمير الجمع، وضمير المفرد في مثل قوله:

ولكننا لم نمت بعـد لكن
لمـاذا يهـال علينا التـراب؟

فمازلت حيًا ولكن رأسي بقايا ضريح

ومازلت أمشي - يقيد خطوي درب كسيح

وينبض قلبي - وإن كنت أحيا بقلب ذبيح

ويؤكد إحساس الشاعر بموت أمته أنه ينتظر زمانًا تتبدل فيه أحوال أمته، فيقول في قصيدة (سيجيء زمان الأحياء): [١]

مازلت أقول:

إن الأشـجـار وإن ذبلت

فـي زمـن الـخـوف

سيعود ربيع يوقظها بين الأطلال

إن الأنهار وإن جبنت في زمن الزيف

سيجيء زمان يحييها رغم الأغلال

مازلت أقول..

لو مـاتت كل الأشـيـاء

سيجيء زمان يشعرنا أنا أحياء

وتثور قبور سئمتنا

وتصيح عليها الأشلاء

ويموت الخوف.. يموت الزيف..

يمـوت الـقـهـر

(١) المجموعة الكاملة ص ٣٦٤.

ويسقط كل السفهاء

لن يبقى سيف الضعفاء

وهكذا ترتبط عودة الحياة إلى الأمة، أو عودة الأمة إلى الحياة بموت الخوف وزوال القهر والزيف والضعف.

وفي مسرحيته (دماء على أستار الكعبة) يقول فاروق جويدة، على لسان بطلتها سعاد:

ما أكثر الأحياء في أوطاننا

لكنهم موتى..

لا شيء ينقصهم سوى كفن القبور

يتكلمون ويأكلون ويشربون ويحكمون..

لكنهم موتى[1]

أما الشاعر الفلسطيني محمد صيام فيسخر من الأمة النائمة ومحارمها تنتهك، فيقول:[2]

يا أمتي نامي هنيه
فالنوم أفضل للقضيه

نامي فما مرت بنا
أبدًا كهاتيك البليه

كلا ولا كانت لنا
يومًا زعامات غبيه

---

(١) المجموعة الكاملة ص ٥٢٥.

(٢) شعراء الدعوة الإسلامية جـ٢ ص٦٩.

نـامـي وسـوف يـحـلـهـا
صـخب الوفـود العـالـمـيـه
ولـيـعـبث الخـصم اللـئـيم
بـكـل سـهـل أو ثـنـيـه
والقـدس تـنهـشـهـا الذئاب
بـخـسـة ولا رويـه
وتدوس مـسـرى المـصـطـفى
عـصب التـتـار البـربـريه
نـامـى فـمـا أحـلـى الـمـنـام
بلا امـتـعـاض أو حـمـيـه
نـامـى فـإن الـنـائـمـين
يـرون أحـلامًا شـهـيـه

وفي شعر عبد الرحمن العشماوي إلحاح دءوب على إيقاظ الأمة من نومها، وبعثها من مرقدها، وفى كل قصيدة من قصائده تبدو مآسى الأمة وجراحها، ومشاهد الليل والسواد، حائلة دون الأمل والفرح اللذين ينشدهما الشاعر، وذلك فى مثل قوله: [١]

مـن أيـن يبـتـسـم الفـؤاد ويـفـرح
وظـلام لـيـلـك جـاثـم لا يـبـرح
والعـالـم العـربـى يفـتـح صـدره
للـمـبـطـلـين وبـالـهـوى يتـرنح

(١) انظر ديوانه «يا أمة الإسلام» ص١٥٩، مكتبة العبيكان- الرياض- ١٤١٢هـ ١٩٩١م.

وبلاد أمـــتنا العـــزيزة أصـــبـــحت
في عـــصـــرنا بســـوادها تتـــوشح
من أيـن يرقى المـــسـلمـــون وبينـهـم
عـــرض يبـــاح وألف طـفـل يذبـح
يـا زهو تـاريـخـي مـــراكـب أمـــتـي
تـاهـت وأذرعـــــة الـفـنـاء تُلَوِّحُ

وفي قصيدته (دمع ودم) يرسم العشماوي لوحة ناطقة بحال الأمة الضائعة، وماذا تقول في لوحة رسمت بالدمع والدم.

لقد جاءت القصيدة تجسيداً لمشاهد السقوط في مهاوي الردي، من خلال الأحداث المتكررة، الدالة على غفلة القوم، وانشغالهم بالعبث واللهو والتهريج والوهم، في الوقت الذي تذبح فيه أطفالهم، وتملأ الأرض قتلاهم، وتغتصب أرضهم. وحصاد هذه المأسي لا يكون غير الدمع والدم. يقول العشماوي: [1]

دمع ودم
وصحيفة بيضاء في
شوق إلى شفتي قلم
وقصيدة..
مازال يهجرها النغم
وجدار أسئلة يقام:
هذي الصفوف تسير في غير انتظام؟
هذا التناحر والصدام؟

---

(١) ديوانه «الشموخ في زمن الانكسار» ص٥٣- الرياض ١٤١٢هـ.

هذا الخصام؟

هذا التدافع والزحام؟

هذا يسافر لا يعود؟

هذا تناطحه الحدود؟

هذا حلال أم حرام؟

من أين أبدأ يا مدىٰ؟

ومتىٰ أرىٰ الأزهار ضاحكة الندىٰ؟

دمع ودم

هذه الأسئلة الكثيرة التي تبحث عن إجابات، والتي يجب أن تشغل أهل الفكر والرأي في الأمة، وتشغل سائر الناس، لا يجيب عليها أحد! فالكاتبون مشغولون بأخبار الممثلات والمغنيات والراقصات والعاشقين والعاشقات! .

فالكاتبون علىٰ المناضد يكتبون:

باعت عباءتها الممثلة القديره

رفعت عقيرتها المغنية الشهيره

ذهبت إلىٰ باريس راقصة

وأسمعنا مرقصها شخيره

والعاشق الولهان

تقتله العشيرة

دمع ودم..

وتتجاور هذه الأخبار التافهة مع أخبار الكوارث النازلة علىٰ الأمة في كل موقع، والقوم لا يفيقون !.

والكاتبون علىٰ المناضد يكتبون:

لبنان

يبقر بطنه رمح وتركله قدم

والقدس . .

يطحنه السأم

لبنان . .

يرسل لحن حسرته الحزين

والقدس . .

يحرقه الحنين

ومسارح التهريج عامرة

بزوار «كرام»

فدع التشفي والملام

واقرأ على صفحات أمتك الجريحة

بعض أخبار الغرام . . واقرأ على القوم السلام

دمع ودم

أواه من قومي

يلوكون الجراح ويسكتون

أواه من قومي

يعون ولا يعون

ما عاد وجه القدس يحمل

غير خارطة الألم

يرمي إلينا نظرة

مزجت مدامعها بدم

أني تلفت

صاح من هو الخطوب

كل البقاع أمامه سفر

إلىٰ لهب الحروب

شرق وغرب

والجنوب مع الشمال

تدعو الرجال ولا رجال

وتكاد تسأل

ثم يعجزها السؤال

دمع ودم

ومحابر التاريخ تنتظر المداد

ودروب أمتنا علىٰ أرض الخضوع

لها امتداد

والأرض يغزوها الجراد

والراكبون علىٰ خيول الوهم

لم يصلوا إلىٰ أرض اتحاد

دمع ودم

ويعتقد الشاعر عبد الرحمن العشماوىٰ أن عودة الأمة إلىٰ الحياة مرهونة بعودتها إلىٰ الإسلام عقيدة ومنهاج حكم وسلوك، فيقول:

سنبقىٰ من مفاجأة لأخرىٰ

إذا لم يؤخذ الرأىٰ الأسد

إذا لـم يـحـكـم الإســـــلام قـــــومـي

فـــمــهـــدك أيهـــا المـــولـود لحــــد

هكذا نعى الشعراء أمتهم، وتحسروا عليها، وصوروا مآسيها. ولا شك أن أحوال الأمة مثلت أرضًا خصبة لنبتة الحزن واليأس، تلك النبتة التي غذتها ثقافة وافدة، تمثلت في الفلسفات المادية، والمذاهب الأدبية، التي هبت رياحها على العالم العربي، بعد فتح النوافذ على الغرب، إذ بعد نشاط البعثات والترجمة، وانتشار الطباعة، قدمت على موائد الثقافة أفكار داروين، وينتشه، وفرويد، وماركس، وجان بول سارتر، وأشعار ورد زورث، وشيلي، وبيرون، ولامرتين، وإليوت، فتأثر الشعراء بهذه الأشعار وتلك الأفكار. يقول نزار قباني:

«. . . فكل بذور الفكر التي حملتها أمواج البحر المتوسط إلينا أخصبت في ترابنا وأعطت زهرًا وورقًا. . كل الفلسفات، وكل النزعات، وكل المدارس. سواء منها الغربية أو الشرقية، البورجوازية أو الماركسية تصادمت في منطقتنا ثم انسحبت تاركة على أرضنا مزقًا من راياتها.

طاغور وغوته وشكسبير وده موسه ومالارميه وفاليري وآراغون ورامبو ولوركا وبول إيلوار وآخر العنقود: ت. س. إليوت. . كل هؤلاء مروا من هنا. . ورحلوا عن هنا، بعد أن خلفوا على فجر شعرنا بعضًا من أنفاسهم.

الالتزام ابن الماركسية المدلل مر برؤوسنا في أوائل الخمسينات مرور الدوار المباغت. . ثم دقت الوجودية السارترية أبواب أدبنا بعنف، واستطاع سارتر وكامو وكافكا وكولن ويلسن أن ينقلوا عوارض الغثيان والسرطان إلينا.

وأصبح (اللامنتمي) بجنونه وضياعه وبلاهته وشعره المنكوش البطل الرئيسي في كل عمل أدبي نصنعه، وملح الطعام على مائدة شعرائنا.

. . وفي رأيي أن أزمة العبث والعدم واللاجدوى هي أزمة نفسية مستوردة لها ما يفسرها في الحضارة الأوربية المتعبة. أما نحن فقد نقلناها بدون تحفظ،

فالقرف الذي يطغىٰ علىٰ آثارنا الأدبية ليس قرفًا عربيًا، إنما هو قرف صنع في فرنسا وانتقلت إلينا جراثيمه بالعدوىٰ».

ويضيف نزار: «إنني لا أنكر أن الإنسانية كلها تعاني أزمة مصير وأن جيلنا هو جيل الغبار الذري والهواء الملوث والعقد الفرويدية المميتة، الجيل المصلوب بلا صلب، المشوه من داخله منذ ولادته.

إنني أعرف هذا، ولكننىٰ أعرف أيضًا أن للإنسان العربي أزماته الخاصة، وأزمات واقعية تتصل بالرغيف وبالدواء وبالعلم وبسرطان إسرائيل أكثر مما تتصل بالمجردات الفلسفية...»[1] أ.هـ.

اجتمع الإحساس بموت الأمة، والتأثر بهذه الثقافة السوداء علىٰ العصف بعواطف كثير من الشعراء، والتطويح بها في مهاوىٰ اليأس، فجاء شعرهم فىٰ كثير من الأحيان دعوة إلىٰ الهروب من الحياة، وأمنية في التخلص منها، وكأنهم بذلك يحتجون علىٰ ما لم يحتملوه. بل إن بعض الشعراء تجاوز حدود التفكير والتمني، ولم ينتظر قدوم الموت إليه، فعجل بقتل نفسه تخليصًا لها من عنت الحياة وبعضهم شرع في الانتحار ولم يتمه[2].

والاستسلام للحزن، واليأس من الحياة ـ علىٰ هذا النحو ـ موقف متخاذل يدل

---

(١) انظر: الشعر قنديل أخضر. ص ٤٨ وما بعدها، بيروت ١٩٦٣م.

(٢) فى موت صالح الشرنوبى شبهة انتحار –راجع قصة موته فى مقدمة ديوانه التى كتبها د. عبد الحى دياب. وفخرى أبو السعود قتل نفسه. انظر «فخرى أبو السعود حياته وشعره» للقبانى. كما قتل الشاعر اللبنانى خليل حاوى نفسه احتجاجاً على الغزو الإسرائيلى للبنان وعلى سلبية العرب فى مواجهته، راجع مجلة الدوحة القطرية عدد ٨٠ شوال ١٤٠٢هـ أغسطس ١٩٨٢م. مقالاً بعنوان مأساة أمة فى مأساة شاعر، د. محمد جابر الأنصارى، ومقالاً بعنوان: من لم يمت «بالذبح» مات بغيره للأستاذ رجاء النقاش. أما الشاعر عبد الهادى عبد المقصود فحاول الانتحار، ولم يتمه، انظر مجلة الشعر عدد ٢٢ يوليو ١٩٨١م. مقالاً بعنوان: شاعر أطلق على نفسه الرصاص، للسيدة جليلة رضا.

على عزائم هشة ونفوس ضعيفة، ويدل كذلك على خلل في تصور الحقائق والتعامل معها.

ولقد علت نبرة الحزن واليأس، والتغني بالموت بوصفه أمنية تريح من عناء العيش، في شعر طلائع التجديد في الأدب الحديث، شكري والعقاد والمازني، فقد توسعوا في هذا الباب توسعًا كبيرًا، وتبعهم في ذلك نفر من الشعراء.

* * *

الفصل الثاني

الموت أمنية

«البارودي والجرأة المحمودة في الحرب- حب الحياة فطرة لا تغلب- تمنى الموت هربًا من الحياة ويأسًا- أول من توسعوا فى هذه المعانى هم دعاة التجديد- تفسير ذلك وتعليله- تمجيد الموت وتعجله فى سن مبكرة- المازنى- صالح جودت- صالح الشرنوبى- فخرى أبو السعود».

ينفرد البارودي شيخ شعراء العصر الحديث بأنه كان أكثرهم تعرضًا لأسباب الموت، وغشيانًا لمواطنه بحكم وظيفته العسكرية.

وفي كثير من المواضع يصور جرأته على الموت في ميادين الوغى حيث تجول المنايا وتصول، وتتراءى صور المنية في شعره حمراء بلون الدم، أو سوداء بلون الغبار، يقول البارودي: (١)

وبحـــر من الهـيـــجـــاء خـــضت عــبـــابه
ولا عـــاصم إلا الصـــفـــيح المـــشطب

تـظل به حـــمـــر المنايا وســـودها
حـــواســـر في ألوانـهـــا تتـــقلب

توسطتـــه والخـــيل بالخـــيل تلتـــقي
وبيض الظبـــا في الهـــام تبـــدو وتغـــرب

ويقول: (٢)

ونقع كلج البـــحـــر خـــضت غـــمـــاره
ولا مـــعـــقل إلا المناصل والجـــرد

صـــبـــرت له والمـــوت يحـــمـــر تارة
وينغل طورًا في العـــجـــاج فـــيـــســـود

وهذا الإقبال على الموت يستند إلى رصيد من أخلاق الفروسة يجعل الشاعر يفضل الموت على حياة يشوبها الذل والهوان، فيقول: (٣)

دع الذل في الدنيـا لمن خـاف حـتـفـه
فللمـــوت خـــيـــر من حـــيـــاة على أذى

(١) ديوانه جـ ١ ص ٩١.
(٢) ديوانه جـ١ ص ٢١٦.
(٣) ديوانه جـ ١ ص ٢٩٩.

ويقول:[١]

فـإمـا حـيـاة مـثل مـا تشـتـهي العـلا
وإمـــا ردى يشـــفي من الداء وفـــده

وفي رده على صاحب نصحه بالتمهل وعدم الاقتحام خوفًا عليه من الهلاك يقول البارودي:[٢]

فـــقلت تعلم أنمـــا هي خطة
يطول بهـا مـجـد وتخـشى فـضـائح
فـمـا كل مـا ترجـو من الأمـر ناجع
ولا كل مـا تخـشى من الخطب فـادح
فـقـد يهلك الرعـديد في عـقـر داره
وينجـو من الحـتف الكمي المـشـايح
وكل امـرئ يومًا مـلاق حـمـامـه
وإن غـار في أرسـانه وهو جـامح
فـإن عـشت صـافـحت الثـريا وإن أمت
فـإن كـريمًا من تضم الصـفـائح

والفرق كبير جدًا بين هذا المستوى من قبول الموت والترحيب به في سبيل الغايات الراقية، وتمنيه هروبًا من مواجهة الحياة وخلاصًا من متاعبها كما في قول حافظ إبراهيم مثلاً:[٣]

فـهـبي رياح المـوت نكبًا وأطفـئي
سـراج حـيـاتي قـبل أن يتـحطمـا

---

(١) ديوانه جـ ١ ص ١٩٥.
(٢) ديوانه جـ ١ ص ١٦٣.
(٣) ديوان حافظ جـ ٢ ص ١١٥.

على أن حب الحياة مهما كان الدافع إلى تمنى الموت فطرة في الناس لا تغلب، وأكبر الظن أن الشعراء الذين ألحوا في التعبير عن تمنيهم للموت كانوا يخالسون هذه الفطرة، ولابد أن نأخذ أقوالهم في ذلك الباب في إطار وصف القرآن الكريم: ﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون...﴾[1].

ومن اليسير تفسير هذا الوصف اعتماداً على الطبيعة النفسية للشعراء، فهم أقرب من غيرهم إلى فرط الرقة ورهافة الحس، والميل إلى التخييل، والنظر إلى الأشياء بكثير من المبالغة والتهويل.

يقول العقاد:

«والشاعر بجبلته أوسع من سائر الناس خيالاً، فالمثل الأعلى أرفع في ذهنه منه في أذهان عامة الناس، وهو ألطفهم حسًّا، فألمه أشد من ألم المهم، وإنما يكون الألم على قدر بعد البون بين المنتظر وبين ما هو كائن، فلا جرم إن كان الشاعر أفطن الناس إلى النقص، وأكثرهم سخطًا عليه»[2].

كما يقول:

«إن كان للأمة جهاز عصبي، فإن الشاعر العبقري أدق هذه الأعصاب نسجًا، وأسرعها للمس تنبهًا، ولا غنى لجسم الأمة عن هذه الأعصاب المفرطة في الإحساس، لتزعج الأمة لأخذ الحيطة...»[3].

- على أية حال - اجتمعت الأحوال السيئة التي أحاطت بالأمة، والظروف القاسية في حياة بعض الشعراء، والثقافة السوداء التي راجت في العصر الحديث. على تبغيض الحياة لدى هؤلاء الشعراء، فذهبوا يصورون ضيقهم بها،

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٢٥ وآية ٢٢٦.

(٢) مقدمة ديوان المازنى ص. ص

(٣) مقدمة ديوان المازنى ص. ض

ونقمتهم عليها، وتمنيهم الموت تخلصًا منها.

وقد كان طلائع التجديد في الأدب الحديث أول من توسعوا في هذه المعاني - كما أسلفت -.

يقول الدكتور أحمد هيكل في تفسير هذا المنحى عندهم:

«وليس من شك في أن قراءات رواد هذا الاتجاه في الأدب الرومانتيكي الإنجليزي قد كان لها أثر في شيوع هذه العاطفة - (يعني عاطفة الحزن واليأس) - في شعرهم. ولكن طبيعة هؤلاء الرواد أولاً، وظروف حياتهم ثانيًا، كان لهما أعظم الأثر في هذا الشأن، فإحساسهم المفرط بما يكتنف الحياة من مظالم وشرور وآثام. ومعاناتهم الواعية للمتاعب والعقبات التي سدت الطريق إلى ما كانوا يرون أنفسهم جديرين به من مجد، ومقاساتهم الشديدة لألوان من الاضطهاد التي وصلت أحيانًا إلى درجة المحاربة في الرزق، كل ذلك كان المصدر الأول لهذه العواطف المفعمة باليأس، المليئة بالمرارة، الجياشة بالحزن والضيق الذي يبلغ أحيانًا حد اليأس»[1].

في قصيدته (ثورة النفس) يعدد العقاد بعض الأسباب التي دفعته إلى الضيق بالحياة فيقول:[2]

لقد كنت أرجو في الحياة لبانة
فعدت ومالي في الحياة رجاء

وكنت أخال الناس إلا أقلهم
كرامًا إذا هم كلهم لؤماء

وكان خيالي في السماء محلقًا
فهاض جناحيه الزمان المغرر

(١) تطور الأدب الحديث في مصر ص ١٦٢.

(٢) ديوان العقاد ص ٣٤٤.

إذا استل منه ريشة بعد ريشة
جرى دمه في إثرها ينحدر

عجيب من الدنيا توالي صروفها
وأعجب منه حبنا لدوامها

هو العيش داء والنفوس مريضة
ولكنها تأبى شفاء سقامها

ويتمثل داء العيش عند العقاد في حيرة وغصة وأسي وسأم تضني كبده، فيطلب من الموت أن يمد إليه يديه ليخلصه من هذا الداء فيقول: (١)

ظمآن ظمآن لا صوب الغمام ولا
عذب المدام ولا الأنواء ترويني

حيران حيران لا نجم السماء ولا
معالم الأرض في الغماء تهديني

يقظان يقظان لا طيب الرقاد يدا
وينى ولا سَمَرُ السُّمّارِ يُلهيني

غصان غصان لا الأوجاع تبليني
ولا الكوارث والأشجان تبكيني

أسوان أسوان لا طب الأساة ولا
سحر الرقاة من اللأواء يشفيني

سأمان سأمان لا صفو الحياة ولا
عجائب القدر المكنون تعنيني

---

(١) ديوان العقاد ص ١٩٨.

أصـــاحب الدهر لاقلب فـــيـــســـعـــدني
على الزمـــان ولا خل فـــيـــأســـوني
يديك فـــامح ضنى يا مـــوت في كـــبـــدي
فلست تمـــحـــوه إلا حـــين تمـــحـــوني

وفي مقطوعة بعنوان (كأس الموت) يصف العقاد الموت بأنه كأس شهية، جديرة بالاحتفاء بها والغناء لها، لأن المنية راحة، والنعش مهد، والميت وليد. وجدير بالناس أن يغنوا لهذا الوليد، وألا يبكوا حتى لا يحزنوه، يقول:[1]

إذا شـــيـــعـــوني يوم تقـــضى منيـــتي
وقـــالوا أراح الله ذاك المـــعـــذبا
لا تحـــملونى صـــامـــتـــين إلى الثـــرى
فـــإنى أخـــاف اللحـــد أن يتـــهـــيـــبـــا
وغنوا فـــإن المـــوت كـــأس شـــهـــيـــة
ومـــازال يحلو أن يغني ويشـــربا
ومـــا النعش إلا المـــهـــد مـــهـــد بني الردى
فـــلا تحـــزنوا فـــيـــه الوليـــد المـــغـــيـــبـــا
ولا تـذكـــرونـي بـالبـكـاء وإنمـــا
أعـيـدوا على سـمـعي القـصـيـد فـأطربا

ومع هذا التغني بالموت تظهر فطرة حب الحياة وكراهية الموت في قصيدة العقاد: (الموت في الكرى) ففيها يرسم للموت صورة منفرة، ويذمه، ويدعو

(١) ديوان العقاد ص ٥٩.

عليه بالشلل، ويطلب منه أن يبعد، وألا يطرق الناس في أحلامهم حتى لا ينغص عليهم نومهم، ويفسد عليهم يقظتهم، فيقول: (١)

أبصرت في الموت بالكرى
عميان لايخطئ العدد
عميان حتى لما ترى
عيناه ما اغتال أو رصد
قلت أنت الذى حمى
كل البرايا عن الأبد
كفَّاكَ يا موت شُلَّتا
لم تعفيا قط من أحد
كف من الثلج إن جرت
في جاحم النار تبترد
نعم وكف من اللظى
إن مست الماء يتقد
أغرقت يا موت في الأذى
يا نازع الروح والجلد
يا مطعم الدود بالصبا
لا الدود تبقى ولا الجسد
هذا إلى ذاك ينتهي
إن طال أو قصر الأمد

(١) ديوان العقاد ص ١٠٢.

تـنـسـى الـذى نـام فـي الـثـــــــرى
ولــســت تــنــســى الــذي ولــد
لا تــطــرق الــنــاس فــي الــكــرى
سلطانك الـقــبــر فــابتــعــد

أما عبد الرحمن شكري، فقد هونت مصائب الدهر الموت عنده، ورأى أن في الموت أمنًا وحبورًا، وأن الموتى خليقون بغبطة الأحياء لما جره عليهم الموت من الراحة والسعادة، فيقول: (1)

وهون عندي المـــوت مـــا الدهر صـــانع
فلست من الخطب العظيم أخـــور
أنشــقى بفــقــد المــيت والمــيت ناعم
ســعــيــد بمــا جــرَّ الحِمــامُ قــرير
ومـــا المـــوت إلا الأمن والخلد ضـــوءه
ألا إن فــقـــدان الحــيـــاة حــبـــور
خليق بنا أن نغــبـط المــيت حـــاله
فــإن حــيـــاة العـــالمـــين غـــرور

وفي موضع آخر يخاطب شكري الموت خطاب المحب محبوبه، ويناديه نداء الطفل أمه، ويطريه ويمدحه، واصفًا إياه بأنه منصف المظلوم، ومهرب الملهوف، ومبرئ الجراح، ففي جواره الأمن، وفي ملكه الرحمة، ولذا فهو يشتاق إليه، ويتمنى لقاءه، ويلقي عليه تحياته، فيقول: (2)

---

(١) ديوان عبد الرحمن شكرى ص ٣٠٤.
(٢) ديوانه ص ٥٤٢.

ويـا منصف المظلوم من كل ظالم

ويا مهرب الملهوف يخشى الأعاديا

ويا مبرئًا كلم الحياة بطبه

جلالك أن قد راق ما كنت شافيًا

ويا ستر لم يصدعك هم ولوعة

ويا حصن عطلت الدروع الأواقيا

فيا موت يا أما أطالت تصامما

أما لك قلب يرأم الولد حانيًا

ألا أرضعيني منك يا أم درة

لأذكر ما قد كنت في العيش ناسيا

فيا موت أقبل باسط الوجه طلقه

فإن حميم الصحب ما كنت لاقيا

أحبك حب الصب وجه عشيقه

لينقع ثغر منك صديان ظاميًا

وكم طربت أذني للحن أجدته

أعد منك لحنًا يترك السمع واعيا

وأنت شبيه الله في خير نعته

فإنك رحمن وإن كنت قاسيا

جوارك مأمون وملكك رحمة

لمن كان قد أعيى الطبيب المداويا

على العيش واللذات مني تحية

وألف على موت يريح جنانيا

ويتعجل شكري زيارة الموت له في شبابه قبل أن يدركه ذل المشيب، فيقول: [(١)]

فـــزرني في ليل الشـــبـــاب كـــســـارق
ولا تنتظر يا مـــوت ذل مـــشـــيـــبي

ومع هذا الرجاء وهذا التمني للموت يفرق شكري ويفزع مستجيبًا لفطرة حب الحياة وكراهية الموت، وذلك في قوله: [(٢)]

وحـــتـــام أرجـــو المـــوت لا أســـتطيـــعـــه
وأفـــرق منه أن يلـم بمـــضـــجـــعي

وفي قوله: [(٣)]

ولكنني أرجـــو من المـــوت راحـــة
ويفـــزعـني وقـع لـه وخـــواطر
ومـــا العـــيش إلا الذئب تدمي نيـــوبه
وللعـــيش نـاب قـــاتـل وأظافـــر
ولكنه كـــالخـــمـــر تحلو لشـــارب
وإن سلبت منه النهى والســـرائر

وفي شعر المازني تتكرر معاني الملل من الحياة والضيق بها، ولذا فقد تعجل الرحيل عنها، وتشوق إلى خلع بردها، فقال:

لبـــست رداء الدهر عـــشـــرين حـــجـــة
وثنتـــين يا شـــوقي إلى خلع ذا البـــرد

---

(١) ديوانه ص ٤١٩.
(٢) ديوان شكري ص ٢٢١.
(٣) ديوانه ص ٢١٣.

عـــزوفًا عن الدنيـــا ومن لم يجـــد بهـــا
مـــــــراداً لآمــــــال تـعـلـل بـالـزهـد[1]

وتمني الموت في هذه السن (العشرين أو نحوها) . يدل على زهق مبكر من الحياة، وعلى ضعف في مواجهتها .

وليس المازني وحده من تمني الموت في سن العشرين ، فقد اشتاق صالح جودت إلى ضفاف الموت بعد عشرين عامًا من وجوده في الدنيا ، فقال :[2]

يا ضــفــاف المــوت طالت غـيــبــتي
خـــبـــــري بـالـلـه أنـي نـلـتـــــقي
أنفـــذ السـفـــان مـــا في جـــعـــبـــتي
من بقـــايا الصـــبـــر في قلبي الشـــقي
رحـــمـــــــة بـالـلـه ردى غـــــربـتي
بعـــد عـــشـــرين أشـــابت مـــفـــرقي
واجـــعـلـيـنـى في عـــــداد الآمـنـيـن
في حـــرام المـــوت في عـــصـــمـــتـــه
وارسلى في القلب من نور اليـــقـــين
لمـــحـــة تكشف عن ظلمـــتـــه

وتمني صالح الشرنوبي الموت بعد انقضاء خمس وعشرين سنة من عمره مرت عليه ثقيلة كالسحاب الجهام لا تحمل خيرًا ولا أملاً، ولا تزرع غير اليأس والألم، فقال :

---

(١) ديوانه ص ٣٠ .
(٢) انظر ديوان صالح جودت ص ٩٢ .

خمس وعشرون عامًا
مرت سحابا جهاما
فما زرعن صفاء
ولا حصدن سلاما
وما زرعن سوى اليأ
س ناضرًا بساما
خمس وعشرون عامًا
ذابت جوى وسقاما
تهوى على أم رأسي
حجارة ورجاما
يا رب فاقض على شقو
تي وهبني السلاما
وفي يديك زمامي
فلا تمد الزماما (١)

أما فخرى أبو السعود فقد صبر حتى بلغ الثلاثين من عمره، وبعدها أطلق على نفسه الرصاص، وترك ورقة كتب فيها: (٢)

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثلاثين حولاً لا أبا لك يسأم

وكان قبل ذلك قد تمنى الموت، وألح في إطرائه والإشادة به، وعد مزاياه، واجدًا فيه شفاء للأسقام، ودواء للحيرة والشكوك والهموم، وتحريرًا من أسر

(١) ديوان الشرنوبي ص ٤٦١.
(٢) انظر فخرى أبو السعود - حياته وشعره ص ١٨.

الحياة وعنتها، وهو لهذا يعده أطيب المنى.

ويبدو أن أبا السعود أراد أن يجمع ما قاله شكري والعقاد والمازني في الموت، فكتب قصيدته (الموت) التي يقول فيها:[1]

أيا قــادماً تخـشى النفـوس قــدومـه
لأنت صـــديق في ثيــاب غــريم

قــدومك تحــرير الأسـارى ولو درت
لمــا أنكرتك النفس يوم قــدوم

كــمـا ينكر الطفل الطبــيب وعنده
له برء أســقــام ودمل كلوم

بلوت نفــوس الخلق من عــهــد آدم
فــأنت بهــا يا مــوت جد عليم

إذا قــست الدنيــا على متــعب بهــا
بسطت له لأياً جناح رحــيم

ومن شــفـه غـيظ الحـيـاة أغـثـتـه
ببــرد نسـيم في الأصـيل رخـيم

فـأنت لنضـو العـيش من دون صحـبـه
ومن دون قـــرباه أبر رحـــيم

وأنت دواء الجـسم قــد خـيل داءه
تمـيط الأذى عن مـوجع وسـقـيم

وأنت بلاغ النفس حـيـرى مـروعـة
بوادى شكوك جـمـة وهمـوم

---

(١) فخرى أبو السعود، حياته وشعره ص ١٠٦.

وفـــيك ابتـــعـــاد عن جـــهـــالة جـــاهل
وعن قـــول مـــأفـــون وفـــعل لئـــيم
وعـنـدك نـســـــيـــــان وطـول زهـادة
لكلّ مـــراد في الـحـــيـــاة عـــقـــيم
فـــأنت - وإن غلت المنى - أطيب المنى
وفـــيك نعـــيم المـــرء أي نعـــيم
لعـــمـــرك مـــا حي بـأروح منزلا
على الأرض من بـال بهـــا ورمـــيم
وتمـــحـــو يداك الحـــقـــد والخـــوف والأسى
وكـل بلاء في الـنفـــوس قـــديم
وأنت تريح الفكر من كل مـــعـــضـل
يظل له في حـــيـــرة ووجـــوم
وتطوى عن الأجـــفـــان صـــفـــحـــة عـــالم
مليء بأنواع الشـــرور ذمـــيم
عـــزاء لبـــعـض الناس أنك قـــادم
وأن شـــقـــاء العـــيش غـــيـــر مـــقـــيم

ولا شك أن أكثر الناس يرىٰ للموت صورة رهيبة رعيبة، لكن الشاعر قاسم مظهر يرىٰ أن الموت مظلوم في نظرة الناس إليه، فيقول:

أيهـــا المـــوت صـــوروك رهيـــبًا
تتـــهـــاوى بمـنـجـل وثـاب
تنشـــر الرعب في النفـــوس وتمـــضي
بدمـــوع الأصـــحـــاب والأحـــبـــاب

صوروا خنجراً بكفيك يدمي
كل صدر بطعنة واستلاب
أيها الموت قد ظلمت ولكن
هكذا الناس ما احتفوا بصواب[١]

ويرى قاسم مظهر في الموت مبضعًا يشفي من الأدواء، وشعلة مقدسة تنقذ الأرواح من الشقاء، وكفًا ندية تمسح بالحنان عناء المتعبين وآلام المصابين، فيقول:

أنت يا موت مبضع عبقري
يقطر البرء من يديك العذاب
أنت يا موت شعلة لرسول
ينقذ الروح من شقاء العذاب
أنت كف من السماء تندت
بحنان لمتعب ومصاب[٢]

ويتجاوز الخلاف في أمر الموت هذا الحد إلى مدى أوسع بوصفه قضية مثيرة للفكر، محيرة للعقل منذ قديم الزمن، وسيظل الموت المعضلة الكبرى التي يعجز الإنسان عن مواجهتها، وعن تفسيرها إذا لم يستعن في محاولاته في المواجهة والتفسير بوحي السماء، والاعتصام بالإيمان بالله وحده.

وقد فرض الموت نفسه على الشعر الحديث، استفهامًا عن حقيقته، وبحثًا عن سره، وتطلعًا إلى ما وراءه من الحكمة، على النحو الذي سأفصله في الفصل التالي.

---

(١) ديوانه حفيف الغابة ص ٨٠.
(٢) حفيف الغابة ص ٨٠.

الفصل الثالث

الموت قضية

(حكمة الموت- المحافظون التزموا بمقررات الدين، ولم تفقد فكرة الموت عندهم جلالها- البارودى وموقفه من الموت- شوقى وحافظ- التجديد فى الشعر يواكبه جرأة فى تناول العقيدة- نماذج للعقاد، وشكرى وسيد قطب) .



الحياة نفسها هي أقوى مبررات الموت، إذ لا يمكن عقلاً وواقعًا أن تستمر الحياة دون موت. إن الناس في نظمهم التي اخترعوها لضبط حركة العمل، وضمان استمراره اهتدوا إلى ما سموه (الإحالة إلى التقاعد) حتى يأخذ بعض الناس أماكن البعض، وتستمر مسيرة العمل.

وهذا المعنى نفسه من الحكم الواضحة في قدر الموت - إضافة إلى كونه رجعة إلى الله عز وجل - في دار يحاسب فيها الناس على ما قدموا في حياتهم التي وهبهم الله إياها نعمة وابتلاء.

والموت - بحكمه المعلومة والمجهولة والظاهرة والخفية - قدر دالُ على وجود الله - عز وجل - وهيمنته على خلقه وتفرده بالملك.

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾[1].

والبحث عن تفسير للموت أو مبرر لحدوثه خارج هذه الحدود لا يوصل إلى شيء. بل قد يؤدي إلى الضلال أو الجنون[2].

ومع هذا فتساؤل الإنسان عن الحكم المجهولة لا ينقطع، وحيرته أمام المشكلات الكبرى تدفعه إلى البحث.

وفي مواجهة الموت تتفاوت مواقف الشعراء بين قبوله بوصفه قدرًا قضاه الله على الخلائق، ينقل الإنسان من دار الفناء إلى دار البقاء، والحيرة في أمره والتساؤل عن حكمته.

والمتأمل للمراحل التي مر بها الأدب العربي الحديث يجد في هذا الأدب

---

(١) سورة الملك، الآيتان ١ و ٢ .

(٢) اقرأ عن رؤية صلاح عبد الصبور - مثلاً - للموت في الشعر العربي المعاصر - د. عز الدين إسماعيل ص ٣٦١ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر .

صورة لعقائد المجتمع وأفكاره ويستدل على موقع العقيدة في توجيهه ودرجة هذا التوجيه.

فمرحلة المحافظة في الأدب هي مرحلة المحافظة في العقيدة والتمسك بها، والحرص على التقاليد والأعراف. ومرحلة التجديد في الأدب وافقها جرأة في الخروج على الأعراف والتقاليد، حتى إذا وصلنا إلى الحداثة الشعرية المتحللة من كل قيد في التعبير والتصوير، والتي تتقاطع - تمامًا - مع المحافظة في الأدب. رأيناها أثرًا لتضييع يتسع خرقه على الراقع في العقائد والنظم والأخلاق.

في شعر المحافظين لم تفقد فكرة الموت جلالها، واستند تعامل الشعراء معها إلى عقيدة صحيحة ترجع الموت إلى تدبير القدرة الإلهية الحكيمة، ويأوي المحافظون عند تعبيرهم عن محنتهم بالموت إلى ركن شديد من الإيمان بالله واليقين في الآخرة.

عندما ورد إلى البارودي نعي زوجه وهو منفي بسرنديب، رثاها وصور شدة حزنه عليها وعظم مصابه فيها، ثم لاذ بالله، مستروحًا في جنابه نسائم الرضا، مؤملاً في أن يجمع الله بينه وبين زوجه في الجنة فقال:[1]

كل امرئ يومًا ملاقٍ ربه ... والناس في الدنيا على ميعاد

تعس امرؤ نسي المعاد وما درى ... أن المنون إليه بالمرصاد

فاستهد يا محمود ربك والتمس ... منه المعونة فهو نعم الهادي

واسأله مغفرة لمن حلَّ الثرى ... بالأمس فهو مجيب كل منادي

(١) ديوان البارودي جـ١ ص ٢٤٥.

قـــد كـــدت أقــضى حـــســـرة لو لم أكن
مـــتـــوقـــعًا لقـــيـــاك يوم مـــعـــادى

وفي موضع آخر يتناول البارودي قضية الموت في سياج من الإيمان والصبر والتسليم بحكمة الله - عز وجل - فيقول: (١)

وللمـــوت أســـبـــاب ينال بهـــا الفـــتى
فـــمن بات في نجـــد كـــمن بات في وهد
وكل امـــرئ في الناس لاقٍ حـــمـــامـــه
فـــســـيـــان رب العـــيـــر والفـــرس النهـــد
ولولا ارتيـــاع النفس من صـــولة الردى
لمـــا عفَّ عن طيب النعـــيم أخـــو زهد
فـدع مـا مـضى واصـبـر على حكمـة القـضـا
فليس ينال المـــرء مـــا فـــات بالجـــهـــد
ولا تلتـــمس من غـــيـــر مـــولاك هاديًا
إذا الله لم يهـــد العـــبـــاد فـــمن يهـــدى

وأكثر آراء المحافظين في الموت مبثوثة في مراثيهم، وهم في هذه المراثى يعبرون عن خشوعهم أمام جلال الموت، وعجزهم حياله، ولا يميلون إلى التفلسف إلا نادرًا، ويحترمون قضاء الله وقدره في إماتة الخلق.

هذا أمير الشعراء شوقي في رثائه والده يقول: (٢)

ولـم أر حكمًا كـــالمـــقـــادير نافـــذًا
ولا كلقـــاء المـــوت من بينهـــا حـــتـــمًا

---

(١) ديوان البارودى جـ ١ ص ٢٨٠.
(٢) الشوقيات جـ٣ ص ١٤٦.

إلى حـــيث آباء الفـــتى يذهب الفـــتى
سـبـيل يدين العـــالمـــون بهـــا قــدمًا

ومـــا العـــيش إلا الجـــسم في ظل روحـــه
ولا المـــوت إلا الروح فـــارقت الجـــســمـــا

وليس لواحد من الناس مفر من الموت :(١)

كل وإن شـــغـــفـــتـــه دنيـــاه هوىً
يـومًا مـطـلـقـــهـــا طـلاق نـوار

وهذه الدنيا التي يتعلق الناس بها ليست إلا عالمًا باطلاً قليل المتاع :(٢)

كـــل حـــي وإن تـــراخـــت مـــنـــايـــا
ه قـــضـــاء عن الحـــيـــاة انقطاعـــه

والذي تـحـــرص النفـــوس عليـــه
عـــالم باطل قليل مـــتـــاعـــه

حتى الأطباء الذين يعالجون المرضى، ويكونون سببًا في شفائهم، عندما يأتيهم الموت لا يملكون دفعه ولا تأخيره، بل ربما عاش المريض ومات طبيبه :(٣)

ســبـــحـــان من يرث الطبـــيب وطبـــه
ويرى المـــريض مـــصـــارع الآســـينا

ولا شيء من زخرف الدنيا ومتاعها بنافع المرء بعد موته، ولا ينفعه سوى العمل الصالح الذي قدمه لله :(٤)

---

(١) الشوقيات جـ٣ ص ٧٧.
(٢) الشوقيات جـ٣ ص ٢٠٣.
(٣) الشوقيات جـ٣ ص ١٦٨.
(٤) الشوقيات جـ٣ ص ٨٨.

دع الـــجـــنـــود والـــبـــنـــو
د والوفـــود الـمـــحـــضـــره
وكـــل دمـــع كـــــــــذب
ولـوعـــــــــة مـــــــــزوره
لا ينفـع الـمـــيـــت ســـــوى
صـــالـحـــة مـــدخـــره
قـــد ترفع الســـوقـــة عنـــ
ـد الله فـــوق القـــيـــصـــره

وعندما يحاول شوقي التفلسف في أمر الموت لا يصنع شيئًا سوىٰ تقرير ماهو مقرر، كقوله في رثاء على بهجت: (١)

نـشـــدتك بـالـمـنـيـــة وهى حق
ألـم يـك زخـــرف الـدنـيـــا فـــريـا
عـــرفت الـمـــوت مـــعنى بعـــد لفظ
تكلم واكـــشف الـمـــعنى الخـــبـــيـــا
أتاك من الحـــيـــاة الـمـــوت فـــانظر
أكنت تمـــوت لو لم تلف حـــيـــا
وللأشـــيـــاء أضـــداد إليـــهـــا
تصـــيـــر إذا صـــبـــرت لهـــا مليًا

وهذا المعنىٰ الأخير - أعني كون الحياة سببًا للموت - طرقه شوقي أيضًا في قوله: (٢)

---

(١) الشوقيات جـ٣ ص ١٨٦.

(٢) من قصيدته (الله) فى الشوقيات المجهولة، د. محمد صبرى جـ٢ ص١٧٧، ط. دار الكتب ١٩٦٢م.

بالمـــوت أذللت النفـــوس وبالهـــوى
وقـــهـــرت من وطئ التـــراب ومن هوى
والنجم لو ســـرت الحـــيـــاة به هوى
وانحط من أوج الهـــواء إلى إلى الهـــوى
يبكي عليه الأهـــل والعشراء

ولم يجاوز غير شوقي من المحافظين هذا المستوى في فلسفة الموت، وهم يقفون عند الحقائق المقررة في عقيدتهم الصحيحة، ويمتاحون من ثقافتهم التي لم تفسدها فلسفة الوجوديين والعبثيين ومن شابههم. ولهذا يكثر ذكر الله والملائكة والجنة والرحمة في أشعارهم التي تناولت الموت.

فحافظ إبراهيم - مثلاً - يدعو الإنجليز إلى الرضا بحكم الله في موت ملكتهم فيقول:

وأدعـــو الإنجليـــز إلى الرضـــا
بحكم الله جـــبـــار الســـمـــاء[1]

ويأمر الناس بالخشوع إجلالاً لجبريل - عليه السلام - والملائكة في تشييع البارودي، فيقول:

غـضـوا العـيـون فـإن الروح يصـبـحكم
مع المـلائك تكريماً لمـحـمـود[2]

ومثل هذا قول شوقي في رثاء أم المحسنين:

أخـــذت نعـــشك مـــصـــر باليـــمـــين
وحـــوته من يد الروح الأمـــين[3]

---

(١) ديوانه ص١٣٦.
(٢) ديوانه ص ١٤٢.
(٣) الشوقيات جـ٣ ص١٦٣.

وقوله في رثاء علي أبي الفتوح:

فـــاذهب كـــمـــا ذهب الحــســيـ

ـن إلـى الجـــوار الأفـــضـل

فـكلاكـــمـــا زيـن الشــبـــا

ب بـجـنـة الـلـه الـعـلـي[1]

فإذا تجاوزنا المحافظين إلى دعاة التجديد، وجدنا فكرة الموت تشغل حيزاً كبيراً من أنفسهم، وقصائد كثيرة من شعرهم، لكنها تخرج عن سياجها الإيماني الذي وضعها فيه المحافظون.

فقد عبد الرحمن شكري محبوبته، كما فقد البارودي زوجته لكن الفرق كبير جداً بين تعبير الشاعرين عن هاتين التجربتين المتشابهتين، فبينما وجدنا البارودي يأمل في المعاد واللقاء بزوجه في الجنة، ويدعو لزوجه ويسلم على قبرها. نجد شكري لا يرى غير شواهد الفناء ومظاهر البلى، ولا يدعو للقبر بالسقيا، ولا يلقي على ساكنه السلام، ولا يذكر الملائكة ولا الروح الأمين، ولا الجنة، ولا يتذكر الآخرة والمعاد، ويقدم شكري صورة منفرة لمحبوبته الميتة، فيقول: [2]

ورأيت العظام تعـــرى من اللّحم

وقـــد فـــارق البـــهـــاء العظامـــا

أبعـــدى عن مـــشـــمي النفس المبـــر

فـقـدمـاً شـمـمت منه البـشـامـا

أبعـــدى فـــاك ذاك عن شـــفـــتى الظمـــأى

فـــقـــد أبدل الرضـــاب لغـــامـــا

---

(١) الشوقيات جـ٣ ص١٢٤.

(٢) انظر: ق (الجمال والموت) في ديوانه الجامع ص١١٥.

بينمـــا أنت كـــالضـــيـــاء بهـــاء

إذ تعـــودين رمـــة تتـــحـــامى

ويكثر في شعر المجددين التساؤل عن حقيقة الموت، وعن الحكمة منه، ويكثرون كذلك من مناجاة الموتى والحفائر والقبور، وتبدو الحيرة والقلق من شأن المصير في كثير من أشعارهم.

يتساءل العقاد عن حاله في القبر، وعن علاقته بعد الموت بالحياة والأحياء فيقول: (١)

فـــهل يســـري إلى قـــبـــري خـــيـــال

مـن الـدنيـــا بـأنبـــاء الأنـام

ويمـــسي طيف من أهوى ســـمـــيـــري

ويؤنس وحـــشـــتي ترجـــيع هام

وأحـــلـــم بـــالـــزواهـــر دائـــرات

وبـالـزهـر الـمـنور والـغـــمـــام

ألا ليـت الـنيـــام هـنـاك تـحـظـى

بـأحـــلام كـــأحـــلام النيـــام

وهذه الأبيات من قصيدة بعنوان (أحلام الموتى) بعث بها العقاد إلى كل من صديقيه شكري والمازني، وكان مما قاله شكري في الرد على صاحبه: (٢)

أليس الكون أكـــبـــر منك شـــأنا

وأولى بـالـمـــقـــادر والـنـظـام

---

(١) ديوان العقاد ص ١٠١.
(٢) ديوان شكرى ص ١٥٣.

وكان مما قاله المازني في الرد عليه أيضًا: (١)

إذا مـــا المـــوت رنق في جـــفـــوني
وبـات بـكـفـــه يـومًا زمـــامـي

فـــمـــا يغني خـــيـــال من حـــبـــيـب
يزورك بالـتـحـيـة والسـلام

ويتعجب العقاد من الموت، هذا النسيم البارد الذي يطفئ نار الحياة، أو هذا الطفل الذي يعبث بالأحياء ويغيبهم في اللحود خامدين، فيقول: (٢)

فـــيـــا ويح للنفس التي يكبـــرونهـــا
وأكـــبـــر منهـــا في البـــقـــاء الجـــوامـــد

أيشـــعـلهـــا قـــوت ويطفئ نـارهـا
نسـيـم ســـرى من عـــالم المـــوت بارد

أتشـــرق حـــتى يمـــلأ الكون نورها
وتخـــمـــد حـــتى في ضـــريح تغـــيب

ســراج ولكـن مـــا احـــتـمى أن يدوســه
من المـــوت طفل بالعـــوالم يلعب

ويسأل سيد قطب الموتى عن الأسرار المحجبة والحقائق المغيبة، آملاً أن يجد عندهم الجواب فيقول:

ومـــاذا لقـــيـتم بعـــد مـــا قـــد خلفـتـمـو
قـــيـــود الليـــالي الخـــادعـــات المـــواكـــر

(١) ديوان المازني ص ٢٤.
(٢) ديوان العقاد ص ٢٤٥.

ومـــاذا وراء الغـــيب والغـــيب مطبق
وهل يتـــجلى مـــرة للنواظر[١]

ويسأل عبد الرحمن شكري عن مصير العقل والذكاء والقوة والأمل بعد فناء الأجساد، فيقول:

خـــبـــريني عن الحـــجى أين يمـــضي
أين تمـــــضي عـــــرامـــــة وقنوت
أين يمـــــضي الذكـــــاء والأمل الحلـ
ـو وأين المـعـشـوق والمنعـوت[٢]

ويتعدى نظر الشعراء الموت إلى ما بعده، ويطيل بعضهم الوقوف عند مشاهد وأحداث يرونها بأبصارهم أو يتخيلونها بأوهامهم أو يهتدون إليها بنور عقيدتهم وإيمانهم، وتفصيل ذلك في الفصل التالي.

* * *

(١) ديوان سيد قطب ص ١٢٧.
(٢) ديوان شكرى ص ٤٩٠.

الفصل الرابع

ما بعد الموت

(النعش- قصيدة لمحمود حسن إسماعيل- البلى- استنطاق الجماجم- قصيدة (عند رؤية جمجمة) لعبد الرحمن شكرى- (الجمجمة) لفخرى أبي السعود- (عاصفة فى جمجمة) لعلى محمود طه- البعث- (حلم بالبعث) لشكرى- (الخلود) لإيليا أبي ماضي (حقيقة البعث) لعبد الرحمن صان الدين).

يمثل النعش المحمول إلى القبر المسافة القصيرة جداً بين الدنيا والآخرة، كما يمثل مشهداً غنياً بالعبر والمعاني الكبرى، وهو أول مرحلة بعد وقوع الموت. ولم أعثر في الشعر العربي على قصيدة تخص هذا المشهد بالوصف الوافي، والتأمل العميق غير قصيدة الشاعر المتفرد محمود حسن إسماعيل، ((النعش)[1]، وفي بدايتها يخاطب الشاعر النعش (زورق الموت) متسائلاً عن سبب مغادرته للدنيا وإسراعه إلى القبر، ثم يصف مشاعر اليتامى والأرامل ومظاهر الحزن في مشهد الوداع فيقول:

يا زورق الموت ماذا
دهاك من ذى الحياة؟!

فرحت عجلان تجرى
لضجعة في فلاه؟

غادرت دنياك لم تحفل بضجتها
حول الركاب، ولا بالمدمع الجاري

يمشى اليتامى بأكباد متمزقة
من الجوى ورحيل الموكب الساري

وللأرامل صرخات لها ضرم
تحت الأضالع مشبوب من النار

لاحت مناديلهن السود خافقة
كأنما فصلت من حالك القار

كأنها في سماء الحزن أغربة
تنعي حياتك في لهف وإنذار

---

(١) أغاني الكوخ ص ١٠٨.

ثم يخاطب الشاعر الميت المحمول على الأعناق - بعد أن طوف بالأرض، فشرق فيها وغرب، وأمل فيها وانخدع بها، ثم كانت نهايته بها هذا المشهد الذي يحمل فيه إلى قبر ضيق مظلم:

طوفت بالأرض حـــتى مل جـــانبـــهـــا
وعــدت خـــســـران منهـــا نضـــوتســـيـــار

كـــأن عـــودك يوم البـــين مـــهـــتـــصـــراً
ريحـــانة فنيت في جـــوف إعـــصـــار

واهًا على نظرة لم يحظ مـــرسلهـــا
إلا برجع العـــــمـــى من دهره الزاري!

واهًا على أعظم همت مـــصـــارعـــة
غـــول الردى فـــهـــوت من بطشـــه الضـــاري

وأصـــبـــحت كـــاللقى مـدت على خـــشب
مـــضـــمخ بنفـــاح الطيب والغـــار

....

أيســـعـــد الطيب مـــيـــتًا
رنت إليـــــه اللحـــــود

أكـــفـــانه عن قـــريب
يســـيل منهـــا الصـــديد

يا عـــابراً هبط الدنيـــا فظن بهـــا
مـــراتع الخلد لا تحـــصى بمـــقـــدار

فـــراح يطرب مـــخـــدوعًا بفـــتنتـــهـــا
مـــا بين لهـــو وكـــاســـات وأوتار

حـــــــــتـى أدارت لـه الأيــام هــازئـة
كـــأسًا مـــبـــرأة من وصـــمـــة العـــار
من كـــرمـــة الدهر من طافت بســاحـــتـــه
لا يســتـــفـــيق صـــريعًا بين أحـــجـــار!
وكم تزهد لا تنفك ســـبـــحـــتـــه
مـــجنونة التـــــوب من إثم وأوزار

...

حـــتى ثوى في حـــفـــيـــر ويلاه من ظلمـــاته
يلهـــو مع الدود فـــيـــه لهـــو البلى في رفـــاته

ويرى الشاعر محمود حسن إسماعيل في مشهد النعش صورة للحياة الدنيا جميعها وهي حياة قصيرة الأمد تماثل في حقيقتها حياة الورد الذي يرف تحت الضحى نضرًا منتعشًا، ثم لا يلبث أن يجف ويذبل وتقصفه الريح :

مـــهـــمـــا ســـقى الورد ســـاقـــيـــه وأنعـــشـــه
خـــمـــر الندى ونســـيم الربوة الســـارى
فـــرف تحت الضـــحى ســـوســـانه نضـــرًا
في مـــوكب من بنات الزهر مـــعطار
لابد للورد من ريح تقـــصـــفـــه
رغم الضـــحى ومـــعـــين الجـــدول الجـــارى

وهذا التصور ومثله لسرعة انقضاء الحياة مستوحى من البيان القرآني المعجز في مثل قوله عز وجل:

﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يكون حطامًا

وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[1].

وتثقل على الشاعر وطأة الموت، وتعيي أفكاره الحيرة من أمره والعجب من شأن بني آدم في الحياة:

يا حامل النعش لا تعجل فإن أسى
من حيرة الموت أعيى بطش أفكاري
هذا الذي ضاقت الدنيا بمطمعه؟
نصيبه كان منها عشر أشبار

...

وتساوي أن تردَّت
في هاويات الحتوف
جماجم البله فيها
ومخة الفيلسوف

وفي هاويات الحتوف أو المقابر تختلط العظام والأشلاء وتتناثر الجماجم فارغة خاوية، وقد كانت هذه الجماجم يومًا محل عقول ومواضع أفكار، فهل كان يحملها جبابرة أشداء، أو عباقرة أذكياء، أو أناس صالحون أم رجال فاسقون، أم كان يحملها نساء جميلات تهفو إليهن الأرواح وترنو العيون..؟؟

هذه الجمجمة المنحوبة الخرساء، البالية الصماء. وقف عندها بعض الشعراء واستنطقوها.

فلعبد الرحمن شكري قصيدة بعنوان: (خطرات في الحياة والموت-عند رؤية جمجمة)[2] يسائلها فيها عن رحيق الفكر والإدراك، وعن الآلام

(١) سورة الحديد الآية ٢٠.
(٢) ديوانه الجامع ص ٦٥٦.

والأحقاد، وعن الولوع بالجمال، وعن الأخلاق والفعال. أين ذهب كل ذلك؟

ثم يسأل الشاعر الجمجمة عن جيوش دكت الأرض خيلها، ثم بادت ولم يبق لها أثر، وعن غزاة فاتحين رحلوا عن الدنيا كما رحل غيرهم، ويسألها عن هويتها. ماذا كانت وسط هذه المواكب وممن كانت في هذه الزمر؟ وهل كانت جانية أم ضحية؟

فهل أنت ممن قد جنته سيوفهم
وداسته خيل تحتها بالحوافر
أم ازدان تاج قد لبست بحكمة
بها اسطعت تصريف الصروف الدوائر
وهل أنت ممن قد دبر الشر لبه
وأحكم زهو النفس جسر الجرائر
أم الخير ما حنت إليه نوازع
لديك وإن لم تحتقب خير غادر
لقد كنت وكر اللب لو أن عاديًا
من الموت لم يهبط عليك بكاسر
بك ارتاع مسعود إذا ارتاح يائس
بذكرى الردى يرجو علالة صابر

وللشاعر فخري أبو السعود قصيدة بعنوان (الجمجمة) يبدو تأثره فيها بقصيدة شكري سالفة الذكر، ولكنه يتفوق عليه في الوصف والتصوير والتأمل، وقد كان أبو السعود شاعراً مطبوعًا رقيقًا تستحيل الفكرة الفلسفية عنده إلى صورة شعرية رفافة. يقول في وصف الجمجمة: [1]

(١) فخرى أبو السعود– حياته وشعره، ص ١١٢.

شـــــوهـاء حـــــائلـة الألـوان نـكـراء
أبـلى مـــحـــاسنهـــا دهر وآناء
غـشى مـعـارفـهـا من طول مـا حـملت
من الجنادل والأحـــقــاب إعـــيـــاء
نـاءت بعـبء الثـــرى دهراً ونـاء بهـــا
من قـــبل ذاك لـهم العـــيش أعـــبـــاء
جـوفـاء مـصـفـرة من فطنة وحـجى
جـدباء خـاوية الأركـان ظلمـــاء
في العـــيش زاهدة والخلق قـــاطبـــة
بهـــا صـــدوف عن الدنيـــا وإغـــضـــاء
تخـــال شـــاخـــصـــة الطرفـــين رانيـــة
وعـــينهـــا عن سنى الأضـــواء عـــشـــواء
خـرسـاء ليـست تحـيـر القـول سـاهمـة
لهـــا مـــدى الدهر إنصـــات وإصـــغـــاء

وبعد هذا الوصف الضافي للجمجمة يتسمع الشاعر حديثها، ويستخلص مواعظها، ويستخبرها سابق خبرها، فيقول:

إني لأســـمع منهـــا وهي صـــامـــتـــة
وعـظًا مـن القـــول يـدريه الألبـــــاء
نعم وأحـــسب أني إذ أخـــاطبــــهـــا
تعي خـــفي خطابي وهي صـــمـــاء
تتلو على النفس من ســـامي مـــواعظهـــا
عـــجـــمـــاء منخـــوبة الأنيـــاب بكمـــاء

قـــصت على تليـــداً من مــآربهـــا
أتى عليــهن إصـــبـــاح وإمـــســاء
لعل ذا الرأس قـــدماً كـــان يعـــمـــره
ســامي ذكـــاء تنبي عنه ســيـــمـــاء
تحللت في ثرى قــبـــر عناصـــره
وأطفـــئت روعـــة منه ولألاء
وبعـــثـــرت في الثـــرى عليــا مطامـــحـــه
وكـــان من دونهـــا بالأمس جـــوزاء
أو علَّ ذا الرأس في مـــاضي بشـــاشـــتـــه
تاهت به قـــامـــة في الغـــيـــد هيـــفـــاء
كـــانت تروع النهى قـــدماً مـــعـــارفـــه
وتُشـــتـــهى لفـــتـــةُ منه وإيمـــاء
وكـــان هذا الفم المـــمـــقـــوت منظره
تبـــدو به ســـمـــة للعـــين غـــرَّاء
وكـــان ذا المـــحـــجـــر المـــشنوء تسكنه
دعـــجـــاء مـــرسلة الأهداب حـــوراء
وكـــان غـــائر هذا الأنف مـــزدهياً
تعلوه أرنبـــة بالحـــسن شـــمـــاء
يفـــر من قـــبـــحـــه ذعـــراً أحـــبـــتـــه
لو جـــاء ينظره اليـــوم الأحـــبـــاء
لقـــد ســـلا وسلوا في التـــرب وانشـــعـــبـــوا
ولاذ بالصـــمت أحـــبـــاب وأعـــداء

سلت شـؤون الورى في الرمس جـمـجـمـة
قـد بات يسـعـفـهـا وبـل وأنـداء
تخـضـر نامـيـة من حـولهـا دمن
إذا تتـابـع وبـل وهـي صـفـراء
وليس يكرثهـا في العـيش مـا فـجـأت
بـه البـريـة سـراء وضـراء
قـد أسكت المـوت أصـداء الحـيـاة بهـا
ولـلـريـاح بـهـا إن نـحـن أصـداء

وللشاعر المهندس على محمود طه قصيدة بعنوان (عاصفة في جمجمة)[1] .

ويبدو أن هذه العاصفة أرادت التعجيل بقيام الساعة وانقضاء الحياة الدنيا، وهي عاصفة عجيبة تجاوب لها الكون، وحدثت فيه عجائب تشبه علامات القيامة، فهذه العاصفة :

صـرخـة منهـا السـمـاوات انثنت
وقـد اسـتـعـصت على طارقـهـا
صـاح منهـا الوحش ذعـرًا والتـفت
يسـأل الوديان عن خـالقـهـا
وإذا المـوتى يشـقـون الوهاد
كـالضـوارى كلهم عـاري البـدن
رحـمـة الله!! أذا يوم المـعـاد؟
فنسـوا من هوله حـتى الكفن؟
أين منك الشـمس يا مـشـرقـهـا

(١) ديوان على محمود طه ص ١٢٢، دار العودة- بيروت.

أتراها خلف أسوار الأبد

حجبتها فهي لن تطلقها

يوم لا يبقى على الأرض أحد

وإذا كانت القبور هي محل الجماجم والرفات فهي كذلك موضع الحياة البرزخية حتى يأذن الله ببعث الموتى يوم النشور.

ولكن ما طبيعة هذه الحياة؟!

تساءل بعض الشعراء عن أحوال الموتى في القبور، وقد سبقت الإشارة إلى قصيدة العقاد (أحلام الموتى) ورد شكري والمازني عليه، لكن يبدو أن القصيدة أثارت عند المازني الرغبة في التساؤل عن أحوال الموتى في قبورهم، فكتب قصيدة عنوانها (بعد الموت). يقول فيها: (١)

ترى يذكر الأحياء أهل المقابر

ويعتادهم فيها كشوق المسافر

وهل تظمأ الأم العطوف إلى ابنها

إذا انتزعتها منه أيدى المقادر

تقول ألا ليته لصق أضلعى

كعهدى به والنوم ملء المحاجر

أضم إلى صدرى حشاشة نفسه

وأملأ قلبى منه بعد النواظر

وهل يحمل الصب المشوق ولوعه

ويصبو إلى سحر العيون الزواهر

---

(١) ديوان المازنى جـ ١ ص ٤٧.

وما حال طفل ضامر ظامئ الحشا
إذا غاله سهم المنايا الجوائر
أيذكر ثدى الأم في كل لحظة
ويبكي حجور المحصنات الحرائر
وهل يحلم المفلوك في رقدة الردى
بما كان يلفى في الليالي الغوابر
فيحلم بالإيسار طوراً و بالغنى
وبالفقر والإملاق في كل آخر
وهل يسمع الملحود ريعان زفرة
ينفسها قلب جريح الضمائر
على هرم هم برى الدهر عظمه
وقوسه عبء السنين المواقر

هكذا يتساءل المازني . . هل يذكر الأموات في قبورهم من تركوهم في الدنيا، وهل يشتاق الميت إلى أهله، كما يشتاق المسافر؟

الأم التي ماتت وتركت ولدها هل تحن إليه وتخاف عليه ، وتتمنى أن تضمه إلى صدرها كما كانت تفعل وهي نائمة ؟

والمحب ذو الصبوة الذي حال الموت بينه وبين من يحب، هل يشتاق في قبره إلى حبيبه في الدنيا ويحلم به ؟

وهل يحن الطفل الصغير بعد موته إلى ثدي أمه ويشتاق إلى حنانها؟

والفقير الذي كان يحلم بالغنى في حياته، هل بعد موته تعاوده أحلام الثراء؟

وهل يحمل الشاب الذي مات وترك أباه المسن في الدنيا يعاني ضعف

المشيب والصراع مع الحياة. هم هذا الأب العجوز ؟

لم يجد المازني إجابة عن هذه التساؤلات ، فقال :

ستخبرني نفسي إذا حان حينها
وصرف كمن بادوارهين حفائر

وبعد مرحلة القبر يكون بعث الناس، وقيامهم لرب العالمين.

وسنتوقف هنا مع ثلاث قصائد تحمل كل منها موقفاً من أمر البعث ورأياً فيه . أولى هذه القصائد تناولت الأمر بكثير من السخرية التي لا تليق، وهي قصيدة (حلم بالبعث) للشاعر عبد الرحمن شكري والتي يقول فيها[1] :

رأيت في النوم أني رهن مظلمة
من المقابر ميتًا حوله رمم

ناء عن الناس لا صوت فيزعجني
ولا طموح ولا حلم ولا كلم

مطهر من عيوب العيش قاطبة
فليس يطرقني وهم ولا ألم

ولست أشقى لأمر لست أعرفه
ولست أسعى لعيش شأن العدم

فلا بكاء ولا ضحك ولا أمل
ولا ضمير ولا يأس ولا ندم

والموت أطهر من خبث الحياة وإن
راعت مظاهرة الأجداث والظلم

---

(١) ديوان شكري ص ٢٤١ .

مـــا زلت في اللحـــد مـيـــتًا ليس يلحـــقني
نبح العـــدو وبي عن نبـــحـــه صـــمم
مـــرت عليَّ قـــرون لست أحـــفظهـــا
عـــدا كـــأن مـــر بي الآباد والقـــدم
حـــتى بعـــثت على نفخ المـــلائك في
أبـواقـــهـم وتـنـادت تـلـكـم الـرمـم
وقـــام حـــولي من الأمـــوات زعنفـــة
هوجـــاء كـــالســـيل جم لجـــه عـــرم
فـــذاك يبـــحث عن عـــين له فـــقـــدت
وتـلـك تعـــوزهـا الأصـــداغ واللـمـم
وذاك يـمـــشي على رجل بلا قـــدم
وذاك غـــضـــبـــان لا ســـاق ولا قـــدم
ورب غـــاصب رأس ليس صـــاحـــبـــه
وصـــاحب الرأس يبكيـــه ويخـــتـــصم
ويبـــحـــثـــون عن المـــرآة تخـــبـــرهم
عن قـــبح مـــا تتـــرك الأجـــداث والعـــدم
جـــاءت مـــلائكة باللحم تعـــرضـــه
ليلبـس اللـحـم من أضـــلاعنـا الوضم
رقـــدت مـســـتـــشـعـــرًا نومًا لأوهمـــهم
أني عن البـــعـث بي نوم وبي صـــمم
فـــأعـــجلوني وقـــالوا: قم فـــلا كـــسل
ينجي من البـــعـث، إن الله مـــحـــتكم

قــــد مت مـــا مت في خـــيـــر وفي دعـــة
وقــــد بعـــثت فـــمـــــاذا ينفع الندم

وبعد أن رسم شكري هذه الصورة الهازلة للبعث كما رآها في منامه ـ كما قال ـ أدرك أنه تجاوز الحد ووقع في الإثم، فذهب يستغفر ربه من اللغو والعبث ومن جناية ما يأتي به الشعر، فقال :

أســـتـــغـــفـــر الله من لغـــو ومن عـــبث
ومـن جـنـايـة مـــــــا يـأتـي بـه الـكـلـم

كما أراد جامع الديوان ومحققه أن يعتذر للشاعر عن هذا التجاوز فقال معلقًا على القصيدة في الهامش :

«المقصود بهذه القصيدة السخر بالناس ورذائلهم التي لا تكاد تفارقهم عند البعث».

ولكن سخرية الشاعر لم تقف عند الناس بل تعدتهم إلى الملائكة، وإلى أحداث البعث جميعًا.

أما ثاني هذه القصائد فهي قصيدة (الخلود) لإيليا أبي ماضي، وهي تمثل إنكاراً للبعث واستبعاداً لحدوثه اعتماداً على معطيات الحواس القاصرة وقياسات العقول الفاسدة.

وهذه أبيات منها : (١)

غـلـط الـقـــــائـل إنـا خــــــالـدون
كـلـنـا بـعـــــــد الـردى هـي بـن بـي

---

(١) انظر إيليا أبو ماضي . شعر ودراسة ـ ص ٨٦٥ دار اليقظة العربية بيروت ص٢ سنة ١٩٦٣م . وهي بن بي ـ بتشديد الياءين ـ كناية عن من لا يُعرف ولا يعرف أبوه.

نعشق البقيا لأنا زائلون
والأماني حية في كل حي
شمعتي فيها لطلاب اليقين
آية تدفع عنهم كل غي
تلبث الأفياء ما دام الغصون
فإذا ما ذهبت لم يبق في
ولئن صح بأنا منشرون
جاز أن يعقب ذاك النشر طي
قل لمن يخبط في حيل الظنون
ليس بعد الموت للظامئ ريّ
أنا بعد الموت شيئاً لا أكون
حيث أني لم أكن من قبل شي

فالروح - في رأيه - تفنى بفناء الجسد، كما يذهب ضوء الشمعة بانتهائها، وكما يزول الظل بزوال الغصون، والبعث - في رأيه - مستبعد، لأنه لو كان بعث بعد الموت لاحتمل موت آخر بعد البعث - وهكذا ينتهي الأمر إلى الدور والتسلسل.

ويقرر - بعد ذلك - أنه لن يكون شيئاً بعد موته، كما أنه لم يكن شيئاً قبل ولادته.

أما القصيدة الثالثة فهي للشاعر محمد عبد الرحمن صان الدين. وبها يعتدل ميزان الشعر في هذه القضية، ولست أعني بميزان الشعر هنا - الميزان العروضي الذي وضعه الخليل - إنما أعني ميزان الحق الذي أقامه الله.

يقول صان الدين في قصيدته التي عنوانها: البعث حقيقة: [(١)]

طفت يوماً في خشوع
عند أرماس قديمه
عرت الأرياح منها
أعظماً فيها رميمه
بعضها قد صار تربا
ذهبت عنه الزهومه
كان هذا الترب يوماً
جسم هيئات وسيمه
ناعمات مرهفات
ذات أصوات رخيمه

...

واستهلت من عيوني
فوق صحن الخد عبره
ذي حياة ثم موت
واندثار بين حفره
ثم نشر وانبعاث
حين يلقى الله أمره
ثم خلد في جحيم
أو جنان مستقره

---

(١) ديوان أعاصير وأنسام ص ٧٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م.

يا بنى الدنيا أفيقوا
إن في هذا العبره

...

فانبرى لى ذو فتون
في ازدراء أو يزيد
قال لى فى نبرة قد
هالني منها الجحود
أى مرء مستنير
ضمه هذا الوجود
لا يرى في بعث عظم
أن ذا رجع بعيد!
كل شيء إن تلاشى
في فناء لا يعود!

...

في دياجى الموت يخفي
الناس في ليل طويل
ما رأينا أن ميتًا
عاد من بعد الرحيل
ما سمعنا غير قول
لم يؤيد بالدليل
عن نشور بعد موت
ساغ فى الفكر الكليل؟!

أى بـرهـان لـدعـــوى

ردهـا راقـى الـعـقـول؟!

...

قـلـت: يـا هـذا تـأمـل

ذلـك الـغـصـن الـرطـيـبـا

وانـظـر الأزهـار فـيـه

تـمـلأ الأجـواء طـيـبـا

كـان مـن عـهـد قـريـب

يـابـسًا يـؤسـي الـقـلـوبـا

لـيـس فـيـه مـن حـيـاة

لا تـرى إلا شـحـوبـا

مـا لـه قـد عـاد غـضًا

يـرتـدى ثـوبًا قـشـيـبـا

...

وانـظـر الـغـبـراء تـلـف

أنـهـا أرض مـوات

لا تـراهـا غـيـر جـدب

جـعـدتـه الـسـافـيـات

إن سـقـاهـا الـغـيـث دبـت

فـي روابـيـهـا الـحـيـاة

واكـتـسـت خـصـبًا بـهـيـجًا

قـد زكـا فـيـهـا الـنـبـات

يجتني منه رياش
أو ثمار ناضجات

. . .

هذه الأشجار تنمو
من جسوم الغابرينا
حيث صاروا بعد موت
في طباق الأرض طينا
واستحال الطين في الأشجار أعنابًا وتينا
قد طعمناه ثمارا
حلوة منها حيينا
كيف عاد الميت حيا
في خلايا العيش فينا؟!

. . .

حين تمسي في سبات
دون إدراك وحس
صرت ملقى في فراش
لست تدرى أين تمسى
ثم تصحو في حياة
بين أفراح وعرس
إنه موت وبعث
كل يوم دون لبس

وانطراح في سرير
كانطراح بين رمس

...

هل سألت العقل يومًا
أين كان المرء قبل
كيف أضحى ذا كيان
شكله في العين يحلو
كيف دبت فيه روح
ذات أسرار وعقل
لم يكن من قبل شيئًا
منه فوق الأرض ظل
كان معدومًا بغيب
ليس عنه ما يدل

...

كم على الدنيا ظلوم
غاب عن قاض وحاكم
عاث في الأرض فسادًا
كالوباء كالأراقم
ما نجا منه ضعيف
أو حليم أو مسالم
لو فرضنا البعث وهمًا
قد نما في ذهن واهم

واختفى في الناس زجر
أين يقضي في المظالم؟

...

أيها المرتاب أخفى
بالمماراة مراده
أي ريب أي لبس
هزَّ في البعث اعتقاده؟
إن عظم المرء يحيا
قائما يوم الشهادة
فالذي سواه بدءاً
باختيار وإرادة
في جمال واكتمال
ليس تعييه الإعادة

...

في محيا صاحبي قد
حدَّقت عيني لعلَّ
ما تغشاه رقيق
من ضباب قد تولى
فارتأت فيه بريقا
من هدى القلب تجلى
والذي قد كان وعرًا
منذ ساع صار سهلا

ثـم حـــــيــــــا فـي خــــــشــــــوع ،

قـــــــــائـلاً أيـن الـمــــــــــصـلـى؟!

هكذا أورد الشاعر (صان الدين) شبه المنكر للبعث وردَّ عليها بأدلة الواقع وبراهين العقل، منتهيًا بصاحبه إلى تقرير الحق.

وواضح جدًا في هذه القصيدة الاقتناع الكامل بالرؤية الإسلامية للبعث، والتأثر بالقرآن الكريم في طريقة إقناع المنكرين ودحض شبههم، بلفت الأنظار والعقول إلى الأرض التي يحييها الله بعد موتها، وإلى اليقظة بعد النوم، وإلى التساؤل عن خلق الإنسان وتسويته.

وكلها من آيات قدرة الله المبثوثة في الكون والشاهدة على أن البعث حق لا شك فيه، وكثير من آيات القرآن الكريم عرضتها في مشاهد حية تهدي أولي الألباب إلى الإيمان الكامل واليقين التام.

على أن الإيمان بالبعث من أقوى العوامل التي تساعد النفس على تحمل الحياة بشجاعة، وعلى قبول الموت برضا، بل إن هذا الإيمان هو الكفيل وحده بحل كثير من مشكلات الوجود والتي يصعب تبريرها بمعزل عنه.

وآثار هذا الإيمان - حضورًا وغيابًا - أو قوة وضعفًا - واضحة جدًا في رؤى الشعراء الذين تخيلوا الموت أو استحضروه أو واجهوه، ثم رثوا أنفسهم كما يرثي الأموات، على النحو المفصل في الفصل التالي:

* * *

الفصل الخامس

الموت تخيلاً ورثاء النفس

(البارودى يذكر نذر الموت- حافظ إبراهيم يرثى نفسه فى قصيدتين- عبد الرحمن شكرى يرثى نفسه- محمود أبو الوفا- العقاد يعزى نفسه- أربع قصائد للمازنى فى رثاء نفسه- قصيدة لفخرى أبو السعود- عبد الرحمن صان الدين وقصيدتان فى رثاء نفسه- أبيات للزهاوى- رثاء النفس فى صورة وصية- إيليا أبو ماضى يوصى ابنته- وكذلك فاروق جويده- بدر شاكر السياب ووصية لزوجته- هاشم الرفاعى وقصيدته (رسالة فى ليلة التنفيذ)- مصطفى السباعى يرثى نفسه- مرثية إبراهيم عزت).

للموت رسل ونذر لا تفتأ تذكر المرء بالرجعة والمصير. فمن نذر الموت ورسله، الأمراض والأوصاب، والشيب، وموت الأتراب، وغير ذلك..

وفي كثير من الأحيان يطغي زخرف الدنيا على هذه النذر، ويعلو ضجيج الحياة على صوت تلك الرسل، وقل من الناس من يعتبر بها.

وفطرة حب الحياة في الناس تنفرهم من التفكر في الموت، وغرورهم بالدنيا ينسيهم إياه، وقد يتشاءم بعضهم من حديثه، ولذا فإن الشعراء الذين رثوا أنفسهم، يتصفون بقدر من الشجاعة في تذكر الموت ومواجهته يميزهم عن سواهم.

وبعض الشعراء في تعامله مع نذر الموت لا يجاوز حدَّ الوصف، وبعضهم يذكر الموت، وبعضهم يتخيل موته فيرثي نفسه.

هذا هو محمود سامي البارودي يندب شبابه ويصف أعراض شيبه ويشير إلى نذر الموت فيقول:[1]

أخلق الشيب جدتي وكساني
خلعة منه رثة الجلباب

ولوى شعر حاجبي على عيـ
ـني حتى أطلَّ كالهداب

لا أرى الشيء حين يسنح إلا
كخيال كأنني في ضباب

وإذا ما دعيت حرت كأنني
أسمع الصوت من وراء حجاب

---

(١) ديوانه جـ ١ ص ١٠٥.

كلمـــا رمت نهـــضـــة أقـــعـــدتني

ونيـــة لا تقلهـــا أعـــصـــابي

لـم تـدع صـــولـة الحـــوادث مـني

غـــيـــر أشـــلاء همـــة في ثيـــاب

فـــجـــعـــتني بوالدي وأهلي

ثـــم أنـــحـــت تـــكـــرفـــي أتـــرابـــي

كـل يـوم يـزول عـنـي حـــبـــيـب

يـا لقلبي من فـــرقـــة الأحـــبـــاب

ثم يختم البارودي قصيدته بقوله :

إنمـــا المـــرء صـــورة ســـوف تبلى

وانتـــهـــاء العـــمـــران بدء الخـــراب

وعلى الرغم من تعرض البارودي والشعراء المحافظين للموت كثيراً في أشعارهم فإن أحداً منهم لم يرث نفسه ـ غير حافظ إبراهيم الذي رثى نفسه في موضعين، أحدهما قصيدة بعنوان : (سعي بلا جدوى)، وفيها تصوير لمعاني اليأس والإحباط، والفشل والقنوط، والإحساس بعدم الجدوي من الحياة، والإيمان بأنه لا مخلص من هموم الدنيا وأثقالها إلا الموت.

والتشاؤم الذي تطفح به القصيدة راجع بعضه إلى الظروف الخاصة بالشاعر، وراجع بعضه إلى الأحوال العامة التي عانى منها.

ويبدأ حافظ قصيدته بتبرئة نفسه، ودفع التقصير عنها، ويلقي باللوم كله على الحكام الذين أفسدوا البلاد والعباد، وزرعوا الشقاق والنفاق، حتى أصبح الناس يطلبون السعادة بالتفريط في حق الوطن، والمغنم بتضييع حرمات الدين. واستحكم اليأس من نفس الشاعر، وأخذ عليها كل طريق، فلم يبق له أملاً في الدنيا، وامتد هذا اليأس إلى الآخرة، فألقى بظلاله السود على ظن الشاعر بها،

وويل له إن ساءت آخرته كما ساءت دنياه، يقول حافظ في صدر قصيدته: (١)

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما
وعدت وما أعقبت إلا التندما

لحى الله عهد القاسطين الذي به
تهدم من بنياننا ما تهدما

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم
فلا تك مصريًا ولا تك مسلما

سلام على الدنيا سلام مودع
رأى في ظلام القبر أنسًا ومغنما

أضرت به الأولى فهام بأختها
فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما

فهبي رياح الموت نكبًا وأطفئي
سراج حياتي قبل أن يتحطما

فما عصمتني من زماني فضائلي
ولكن رأيت الموت للحر أعصما

ثم يلتفت الشاعر إلى محل الفكر فيه، وإلى مواطن الإحساس والشعور عنده، ويتوجه إلى قلبه، وصدره، وعينه، ويده، وقدمه، ويتوجه إلى نفسه وجوارحه، فيجمل لها صورة الموت، ويشجعها على لقائه، ويؤملها في الراحة به بعد أن شقيت في الحياة. فيقول معزياً نفسه:

فيا قلب لا تجزع إذا عضك الأسى
فإنك بعد اليوم لن تتألما

---

(١) ديوان حافظ جـ ٢ ص ١١٤.

ويا عـين قـد آن الجـمـود لمـدمـعي
فـلا سـيل دمع تسكبـين ولا دمـا

ويا يد مـا كلفـتك البـسط مـرة
لذي منة أولى الجـمـيل وأنعـمـا

فلله مـنـا أحـلاك في أنمل البلى
وإن كنت أحلى في الطروس وأكـرمـا

ويا قـدمي مـا سـرت بي لمـذلة
ولم ترتقى إلا إلى العـز سلمـا

فـلا تبطئي سـيـرًا إلى المـوت واعلمي
بأن كـريم القـوم من مـات مكرمـا

ويا نفس كم جـشـمـتك الصـبـر والرضـا
وجـشـمـتني أن ألبس المـجـد مـعلمـا

فـمـا اسطعت أن تسـتـمـرئي مُرَّ طعـمـه
ومـا اسطعت بين القـوم أن أتقـدمـا

فـهـذا فـراق بيننا فـتـجـملي
فـإن الردى أحلى مـذاقًا ومطعـمـا

ويا صـدركم حلت بذاتك ضـيـقـة
وكم جـال في أنحـائك الهم وارتمى

فـهلا ترى في ضـيـقـة القـبـر فـسـحـة
تنفس عنك الكرب إن بت مـبـرمـا

ثم يلتفت حافظ إبراهيم إلى القبر الذي استحضره ملاذًا وأملاً، ويطلب منه أن يرد التحية إذا مر عليه أحد وحيا صاحبه في ثراه، بيد أن الشاعر لم يلبث أن استدرك الأمر، وأعرض عن هذا الطلب الذي وجهه إلى القبر، فلقد تذكر أن الود

في الأحياء عزيز، وأنه منهم للموتى أعز، فهيهات هيهات أن يدنو أحد من قبره - بعد أن يقضي - ليلقى عليه السلام. إن هذا الأمر بعيد جداً. يقول حافظ:

ويا قبر لا تبخل برد تحية
على صاحب أوفى علينا وسلما
وهيهات يأتى الحيُّ للميت زائرا
فإنى رأيت الود فى الحى أسقما

وهكذا تبدد أمل الشاعر فى الناس، ويئس من ودهم بعد موته يأسه منهم فى حياته، ويبقى النجم الذى رافق الشاعر فى سهره، وشابهه فى سهده هو الصديق الجدير بثقة الشاعر، فيرجوه أن يذكر عهده، وأن يفى لذكراه، فيقول:

ويا أيها النجم الذي طال سهده
وقد أخذت منه السرى أين يمما
لعلك لا تنسى عهود منادم
تعلم منك السُّهد والأين كلما

وأما الموضع الآخر الذي رثى فيه حافظ إبراهيم نفسه فقصيدته في ذكرى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، والتي ضمنها رثاء حفني ناصف، وفيها يشعر بدنو أجله وقرب موته، ويذكر نفسه بالموت ووحشة القبر، ويأمرها بالتزود من التقوى، فيقول: (١)

آذنت شمس حياتي بمغيب
ودنا المنهل يا نفس فطيبي
إن من سار إليها سيرنا
ورد الراحة من بعد اللغوب

---

(١) ديوان حافظ جـ ٢ ص ٢٠٣.

قــــد مـــــضى (حـــــفني) وهذا يومنا
يتــــدانى فـــاســـتـــشـــيـــبي وأنيـــبي
وارقــــبـــــيـــــه كل يـوم إنـمــــــا
نحن في قـــبـــضــــة عــــلام الغـــيـــوب
اذكـــــري المــــــوت لدى النـوم ولا
تـغـــــفلي ذكــــره عند الهــــبـــــوب
واذكــــري الوحـــشـــة في القـــبـــر فـــلا
مــــؤنس فـــيــــه ســـوى تقـــوى القلوب
قــــدمي الخـــيـــر احــــتـــســـابًا فكفى
بعض مـــــا قــــــدمت من تلك الذنوب
راعني فـــــقـــــد شـــبـــابي وأنا
لا أراع اليـــوم من فـــقـــد مـــشـــيـــبي

ثم يعرب الشاعر عن شوقه إلى القبر، ذلك المضجع المريح، ويتذكر رفاقه الذين وقفوا معه على قبر الشيخ محمد عبده، يرثونه، والذين ماتوا تباعًا، وكان آخرهم حفني ناصف الذي كان موته إيذانًا بدنو أجل حافظ، فيقول:

حنَّ جنبــــــاي إلى برد الثــــــرى
حــــيث أنسى من عـــــدو وحـــبـــيب
مـــضـــجع لايشـــتكي صــاحـــبـــه
شــــــدة الدهر ولا شـــــد الخطوب
لا ولا يســـــئـــــمـــــه ذاك الذي
يســـئم الأحـــيــــاء من عــــيش رتيب
قــــد وقـــفنا ســـتـــة نبكي على
عـــالم المـــشـــرق في يوم عــصـــيب

وقف الخمسة قبلي فمضوا
هكذا قبلي وإني عن قريب

وردوا الحوض تباعًا فقضوا
باتفاق في مناياهم عجيب

أنا مذ بانوا وولى عهدهم
حاضر اللوعة موصول النحيب

هدأت نيران حزني هدأة
وانطوى (حفني) فعادت للشبوب

وفي الأبيات الأخيرة إشارة إلى قصة عجيبة حدثت، «وهي أنه لما توفي المرحوم الشيخ محمد عبده رثاه على القبر ستة من الخطباء والشعراء أولهم الشيخ أحمد أبو خطوة، ثم حسن عاصم باشا، ثم حسن عبد الرازق باشا الكبير، ثم قاسم أمين بك، ثم حفني ناصف بك، ثم حافظ إبراهيم بك، واتفق أن مات الأربعة الأولون على ترتيب وقوفهم في الرثاء، فلاحظ ذلك المرحوم حفني بك ناصف، فبعث إلى حافظ بهذه الأبيات:

أتذكر إذ كنا على القبر ستة
نعدد آثار الإمام وننـدب

وقفنا بترتيب وقد دب بيننا
ممات على وفق الرثاء مرتب

أبو خطوة ولى وقفاه عَاصم
وجاء لعبد الرازق الموت يطلب

فلبى وغابت بعده شمس قاسم
وعما قليل نجم محياى يغرب

فــلا تخش هلكًا مــا حــيــيت وإن أمت
فــمـــا أنت إلا خـــائف تتـــرقب
فـــخـــاطر وقع تحت القطار ولا تخف
ونم تحت بيت الوقف وهو مـــخـــرب
وخض لجج الهـــيـــجـــاء أعـــزل آمنًا
فـــإن المنايا عنك تنأى وتهـــرب

فلما توفي حفني بعد ذلك نظم حافظ مرثيته تلك». (١)

وإذا كان كثير من الشعراء الذين رثوا أنفسهم تحسر على فوات حياته دون أن يحقق المجد الذي تمناه على نحو ما نجده في قصيدة شكري (شاعر يحتضر) إذ يقول: (٢)

أألقى المـــوت لم أنبـــه بشـــعـــرى
ولم يعلم ســـواد الناس أمـــري
وفي نفـــســي من الأبد اتســـاع
تدور الكائنات بهـــا وتجـــري
فـــمـــن للقلب يطربه بلحن
يحن إليـــه من نظم ونثـــر
ومن للكون يرمـــقـــه بفكر
شـــبـــيـــه الكون في ســعـــة وقـــدر
ومـــعنى الخلد يصـــغـــر عند نفـــسي
يضل الخلد في أنحـــاء فكرى

(١) ديوان حافظ ص ٢٠٤ هامش (٣).
(٢) ديوان شكرى ص ٢٣٤.

إذا ظمئ الفـــؤاد إلى كـــمـــال

رأى طول الخلود كـــقـــيـــد شـــبـــر

وعلى نحو ما نجده في قول محمود أبي الوفا: (١)

كـــأنني فكرة في غـــيـــر بيـــئـــتـــهـــا

بدت فلم تلق فـــيـــهـــا أي إقـــبـــال

أو أنني جـــئـــت هذا الكون من غلط

فـــضـــاق بي رحـــبـــه المـــأهول والخـــالي

فإن العقاد يعزي نفسه بما حققه من مجد أدبي فيقول: (٢)

خلعت اســـمي على الدنيـــا ورســـمي

فـــمـــا أبكى رحـــيلي أو مـــقـــامي

حـــيـــاتي في حـــيـــاة الكون طرا

كـــقطر الغـــيث في اللجج الطوامي

ومـــا شـــمس الحـــيـــاة بمـــســـتـــحـــيل

سناها إن قـــضـــيـــت إلى ظلام

وكان المازني من أكثر الشعراء ذكرًا للموت ومن أكثرهم رثاء لنفسه، فلقد رثى نفسه في أربع قصائد هي: (مناجاة الموت) و(الشاعر المحتضر) و(في الرثاء) و(الميت الحي)، يقول في «مناجاة الموت»: (٣)

حـــتى إذا دب بعـــد النوم صـــاحـــبـــه

فـــالجـــفن عن سكرات المـــوت سكران

---

(١) انظر محمود أبو الوفا، دواوين شعره، ودراسات بأقلام معاصريه ص ١١٧.
(٢) ديوان العقاد ص ١٠١.
(٣) ديوان المازنى جـ ١ ص ١٥٠.

وشارف الحين واستروحت نشقته
والعين شاخصة والوجه بردان

وكل ذهني حتى ما يحركه
شيء وأعيا لساني وهو سحبان

والتف حولي خلاني وآصرتي
وكلهم شرق بالدمع غصان

مصغين حتي كأن الموت يخطبهم
فالكل حولي آذان وأعيان

طوراً وطوراً بهي بالخطب صبرهم
فيعولون كأن القوم غيلان

وأضمرتني أرض لست أعذرها
إن عاودتني تحت التراب أديان[1]

وغيبوني بملحود ينادمني
به من السحب هطال وهتان

نضوت عني هموماً كنت البسها
مع الحياة فلي في الموت سلوان

واستروح القلب من شوق يلدده
ومن دموع لها في العين عينان[2]

في ظلمة القبر للثاوي به فرج
وفي التراب توافي الهم أحيان[3]

---

(١) أديان: أي أدواء وأشجان.
(٢) عينان: أي سح
(٣) أحيان: جمع حين وهو الموت، أي إذا مات المرء ماتت همومه.

من لم تسع نفسه الدنيا بما رحبت
فلن تضيق بها في القبر أعطان
دين على ساقضيه إلى زمن
في دينه لي تسويف وليان
يا ليت شعري إذا بوئت في جدثي
هل يرهق القلب ضراً منه عدوان
لسوف أسخر منه وهو يطلبني
ودون ذلك صفاح وكثبان

والقصيدة - كما ترى - تصف حالة الموت وأعراضه، وتصور حال الأهل حينما يلتفون حول الميت، يعصف بهم الحزن، كما ترسم القصيدة مشهد الدفن، ثم يعبر الشاعر عن أمله في أن تموت تحت التراب همومه، وألا يعاوده في قبره شيء من الأحزان والأدواء التي تعقبته في الحياة.

أما قصيدة «الشاعر المحتضر» فهي مرثية شاعر قتله الحب ولما دنا منه الموت نادى حبيبه وأخبره بمكنون نفسه، وبثه لواعج حبه، ثم أمل في الراحة من حرارة الشوق وعذاب الحرمان بعد الموت، وقد جاءت القصيدة على وزن قصيدتى عبد يغوث ومالك بن الريب المشهورتين وقافيتهما[1].

وقد أنطق المازني شاعره بما تكرر كثيراً في شعره من تفضيل الموت على الحياة، فقال على لسانه:[2]

فيا مرحباً بالموت يثلج برده
فؤادي وينسيني طويل عنائيا

(١) مطلع قصيدة عبد يغوث الحارثى، وهو شاعر جاهلى قالها فى رثاء نفسه:
ألا لا تلومانى كفى اللوم ما بيا فما لكما فى اللوم خير ولا ليا
ومطلع قصيدة مالك بن الريب الأموي:
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بجنب الغضى أزجى القلاص النواجيا
(٢) ديوان المازنى جـ ٢ ص ٢٤٥.

تمــوت مع المــرء الهــمــوم ولن ترى

ككأس الردى من علة العــيش شــافــيــا

ولســت عــلــى شــيء بــآس وإنــنــي

لأهجــر ظل الأرض جــزلان راضــيــا

ومــا طال عــمــري غــيــر أن لواعــجــا

أطلن عنائي فــاجــتــويت مــقــامــيــا

ثم ينعي الشاعر المحتضر نفسه إلى ذويه، ويطلب منهم أن يترحموا عليه، ويطلب من صاحبه أن يودع الأرض عنه، وأن يذكر الجبال والزهر به فيقول:

أهاب بنا داعي الردى فــتــرحــمــوا

وقــولوا ســقى الله القلوب الظوامــيــا

وقم ودع الأرضــيــن عني فــإنــني

بقــيــد الردى المحــتــوم الالسناليــا

وقل لجــبــال عــاريات مــخــوفــة

تخــال مــواصــيــهن للجن واديا

الا أطلقي لي صــوتــه والأغــانيــا

وغــذي بذكــراها الشــجــون النوامــيــا

وقل يا عــيــون غــضي الزهر وأطرقي

قــضي عــاشق أجلي العــيــون الروانيــا

ثم يضمن المازني قصيدته أبياتًا من شعر الشاعر الإنجليزي «شلي» مضمونها أن الشاعر لا يموت، لكن الطبيعة أمه تغيبه فيها، وتبقى آثاره خالدة يدل عليها الرعد في هزيمه والطير في تغريده، وكل مظهر من مظاهر القدرة التي تنعم على الدنيا بالشعراء، ثم تدعوهم فيلبون نداءها:

ومــا غـــاله مـــوت ولا هاضــه كـــرى
ولكن غـدا من حلم ذا العـيش صــاحـيــا

ومــا مــات إلا المــوت يا فــجــر فـائتلق
وحـــول سناءً طلك المـــتـــلاليـــا

ولا غـــاب إلا في الطبـــيـــعـــة أمـــه
وقـــدمًا أعـــارته الضلوع الحـــوانيـــا

فـقـومـوا اسـمـعـوا في هزمـة الرعـد صـوته
وفي ســجــعــة الغـــريد منـا بات شـــاديا

وفي حـــيـــثـــمـــا تبـــدو لنا القـــدرة التي
دعـــتـــه فلبـــاها ولم يك عـــاصـــيـــا

ويؤكد المازني خلود الشاعر فيما قاله على لسان حبيبه في نهاية القصيدة، إذ يقول:

وإنك نـور تســـــتـــــضـيء به الـدنا
وغــــيـــرك ظل ســـوف يصـــبح فـــانيـــا

وإنك حــــسـن ليس يبلى وغــــيــــره
وديعــــة دهر يســـتـــــرد العــــواريا

فــيـــا آخـــذاً من دهره بنصــيـــبـــه
هنيـــئاً لك المـــجـــد الذى ليس ذاويا

أما قصيدة «الميت الحي» ففيها يصف المازني نفسه بعد أن ظهرت عليه علامات الضعف، فصار كالميت بين الأحياء وقد كتبها في الرد على صديق له دعاه إلى الدخول في جمعية أنصار التمثيل، يقول: (١)

---

(١) ديوان المازنى جـ ٢ ص ٣٤٣.

مـــا تصنعـــون بفـــان مـــات أكـــثــره
وجف من عـــــوده المنآد أنضـــــره
إذا نظرت إلى كـــادي شـــبـــيـــبـــتـــه
أعطاك كنز عظات فـــــيـــــه منظره
كـــأنه جـــثـــة لم تلف دافنهـــا
أو أنه جـــدث يمـــشـي وتنكره

وأما قصيدته الرابعة التي رثى فيها نفسه والتي عنوانها «في الرثاء» فهي قصيدة عجيبة حقًا قدم لها بقوله :

«قصيدة قلتها في نفسي على لسان آخر ، وسألت صاحبًا لي أن يرثيني بمثلها» .

ويبدو أن المازني أراد أن يجسد في هذه القصيدة مأساتين ، مأساة حياته التي لم ينفعه فيها نبوغه ، ولم يرفعه فيها شعره ، ومأساة موته الذي لم يحزن أحدًا أو لم يؤثر في شيء ، والذي قدم الشاعر طعامًا للدود .

يقول المازني في قصيدته العجيبة تلك : (١)

قـضى غـيـر مـأسـوف عليـه من الورى
فـتى غـره في العـيش نظم القـصـائد
لقـد كـان كـذابًا وكـان منافـقًا
وكـان لئـيم الطبع نزر المـحـامـد
وكـان خـبـيث النفس كـالناس كلهم
جـبـانًا قليل الخـيـر جم الحـقـائد
وقـد كـان مـجنونًا تضـاحكه المنى
وفي ريقـهـا سم الصـلال المـشـوارد

---

(١) ديوان المازني جـ ٢ ص ٣١٩ .

فـعـاش ومـا واسـاه في العـيش واحـد
ومـات ولم يحـفل به غـيـر واحـد
وجـاء إلى الدنيـا على رغم أنفـه
وراح على كـره الأمـاني الشـوارد
أراد خـلـود الـذكـر في الأرض ضـلـة
فـأورده النسـيـان مـر المـوارد
ولـم يبكـه إذ مـات إلا أجـيـرة
لهـا زفـرة لولا اللهي لم تصـاعـد
فـلا دمـع يـروي يـوم ولـى تـرابـه
وكـيف يروي تربه غـيـر واجـد
فـلا تـنـدبـوه إنـه لـيـس بـالأسـى
حـقـيـقًا ولا أهل الهـمـوم العـوائد
وخـلـوه لـلـديـدان تـأكـل لـحـمـه
وذاك لعـمـري خطب كـل البـوائد
ولا تزعـجـوا الـديدان بـالنـدب إنهـا
هـدى لمـن تـطـويـه سـود المـلاحـد

ثم يختم الشاعر قصيدته بدعوة الناس إلى الاحتفال بموته، لأنه فاز بالموت الذي يرجى أن يكون خير آسٍ لجراحه، فيقول:

وقـومـوا ارقـصـوا قـد فـاز بالمـوت مـوجع
بلى ربمـا كـان الردى خـيـر ضـامـد

وممن رثوا أنفسهم كذلك في العصر الحديث عزيز فهمي في قصيدة عنوانها «لحن الموت»[1]، وقاسم مظهر في قصيدة عنوانها «لحن

(١) ديوان عزيز فهمي ص ٤٣.

الرماد»(١) ، وصالح الشرنوبي في قصيدة عنوانها «بعد حين»(٢) .

وأكثر من رثي نفسه من الشعراء يؤملون في الراحة بعد الموت كما أمل «المازني» ويجدون في سكينة القبر وصمته والانقطاع عن الآمال والآلام التي عذبتهم في الدنيا أحسن تعويض عما فاتهم في الحياة .

ويبدو أن مظهر القبور متمثلاً في الهدوء والسكينة قد صرف بعض الشعراء عن حقيقة ما يدور تحت التراب من نعيم القبر وعذابه ، وهما من الحقائق المقررة في الدين .

يرسم فخري أبو السعود صورة للقبر في قصيدته «سأجيء هذي الدار» ممنيا نفسه بالراحة والطمأنينة فيه ، فيقول :(٣)

البـــدر فض غـــيـــاهب الديـجـــور
وأذاب لجـــة بحـــره المـــســـجـــور

أضـــفى على وادي المنيـــة روعـــة
من صـــوب ضـــوء ســـال كـــالبللور

فـــازدادت الأجـــداث فـــيـــه مـــهـــابة
لمـــا انجلت في نوره المنثـــور

قـــرت وقـــرت ســـامـــقـــات حـــولهـــا
عطلن من نسم وســـجع طيـــور

فكأنهـــا في صـــمـــتـــهـــا ومـــثـــولهـــا
أشـــبـــاح واد نازح مـــســـحـــور

وأوى الظلام إلى خـــرائب منزل
خلف القـــبـــور مـــهـــدم مـــهـــجـــور

---

(١) ديوان قاسم مظهر (حفيف الغابة) ص ٨٨ .
(٢) ديوان صالح الشرنوبي ص ٢٤٦ .
(٣) انظر فخري أبو السعود حياته وشعره ص ١٠٤ .

مـــقـــو من الأحـــيـــاء والمـــوتى فـــلا
هـو في القـــبـــور يـرى ولا في الـدور
وأتيت مـــتـــئـــد الخطى .. مـــتـــأنيًا
أنسل بين حـــفـــائر وقـــبـــور
حـيث الصـعـيـد جـمـاجم ومـعـاصم
وحـيـاة صـبـاب وأعـين حـور
حـيث أنطوت سـيـر خـوال وانتـهـت
أشـغـال أجـيـال وحـرب عـصـور
وخـبـت مـعـارك لم يكفكفـهـا سـوى
حـمـلات جـيش للحـمـام مـغـيـر
وخـبـا ضـرام مـحـبـة وعـداوة
وهمـوم أفـئـدة وداء صـدور
أسـتـخـبـر الأجـداث عـمـا اسـتـودعت
من كل منخـوب بهـا منخـور
مـاذا صنعن بفـاتن ومنعم
وجليل شـيب جـاءها وصـغـيـر
كم غـيـبت من كـان مطمع بهـجـة
ومناط آمـال وعـقـد أمـور
طوت الأليـف إذا بكاه أليـفـه
ثنت برب المـدمع المنثـور
ثم يقول:
سـأجيء هذى الدار يومًا لاحـقًا
من غـادروا بالقلب برح سـعـيـر

ومـخلفًا بعـدي حـزينًا مـوجـعًا
يـبـكـي بـدمـع لـلـفـراق غـزيـر
يبـكـى ومـا عـبـراته في أوبـتـي
بـالشـافـعـات ولا الردى بعـذيـر
وتقـر في تلك الغـيـابة أعظمي
من بعـد كـد دائب مكرور
يسلو بها قلبي قـديم مـآربي
كـانت وينزع عن أسى وحـبـور
غـفـلان عن سـال لذكـرى جـامـد
أو جـائد بـفـؤاده المـفطور
ويظل ذاك البـدر فـوقي زاهيًا
يجلو سناه غـيـاهب الديجـور

وحضور العقيدة الصحيحة في قلوب بعض الشعراء وجه شعرهم في رثاء النفس نحو الأمل في الآخرة، فتجاوزوا مظهر القبر إلى الحقائق التي وراءه.

من هؤلاء الشعراء محمد عبد الرحمن صان الدين، وله في رثاء نفسه قصيدتان إحداهما بعنوان (أزف الرحيل)، وفي صدرها يقول: (١)

أعني أيهـا الجـسم العليل
أعني أيهـا الفكر الكليل
وكن طوع الأنامل مستجيبًا
لفكرى أيهـا القلم الكسول
لآخـر مـا بقلبي من كنوز
وأنغـام فـقـد أزف الرحـيل

(١) أعاصير وأنسام ص ٤١.

وذا ضــــوء الســــراج إلى خـــفـــوت

فــــمــــا في زيتـــــه إلا القليل

وشــــمس العــــمــــر ترعش في خطاها

وقـــد أوهى أشــعـــتــهـــا الأصــيل

ســـأقـــفل راجـــعًا من حـــيث جـــئنا

ومـــا مـــوت الفـــتى إلا قـــفـــول

وبعد أن يصف مساوئ الدنيا ومتاعب الحياة، يتعجل الشاعر الرحيل إلى العالم الآخر، يدفعه أمل كبير في أن ينعم بالخلد، وأن تسبح روحه في النور، وأن يحيا في الجنة حياة حقيقية سرمدية في جوار الله -عز وجل-، فيقول:[1]

ســــأرحل يا بني الدنيـــــا وإني

لتلك الرحلة الكبــــرى عـــجـــول

فــــمــــا في غـــابة الدنيـــا حــقـــيـــر

بـــه قــلــي تــعــلــق أو جــلـــيـــل

هناك على الحــقـــيــقــة ســوف أحــيــا

حـــيـــاة لم يدنســــهـــا جــهـــول

وأســـبح في ضـــيـــاء ســـرمـــدي

فـــلا قـــيـــد يحـــد ولا ســـدول

وقـــد سطع الوجـــود أمـــام عـــيني

بشـــمس ليس يعـــروها أفـــول

علـى شـطآن نـهـــــر الـخـلـد أخـطـو

فـــيـــسكر خـــاطري ظل ظليل

(١) أعاصير وأنسام ص ٤٣.

وداعــــاً أيـهـــــا الـنـاسـ ـــــوت إنـي
ســـــــأرحـل والـفــــــــؤاد بـه غـلـيـل
فلم أحـــمــــد مـــقـــامى فـــيك يومًا
وهل حـــمــــدت لدى حـــر كـــبـــول
فـــعـــد للتـــرب مـــوطوءاً مـــهـــينًا
كــــذا كـل لمــــعــــدنه يؤول .

أما القصيدة الثانية التي رثى فيها صان الدين نفسه فعنوانها: (إلى الشاطئ المحجب). وفيها يخاطب القبر أو عالم البرزخ بعد أن رأى سفينة الموت قد دنت منه، وأدرك أنه بعد غمضة أو شهقة سيصير من الموتى، ويتساءل عن مصيره في القبر ومقره، هل سيكون قبره روضة من رياض الجنة، أم حفرة من حفر النار؟ .

يقول صان الدين: (١)

يـا بـرزخ الأرواح إنـي قـــــــــادم
كــدحًا إليك وقــد شــددت رحـــالي
من غـــربة الدنيـــا التي قـــد أثخنت
قـلبـي وأوهـت بـالأسـى ســـربـالـي
ومــعي حـــصـــاد العـــمـــر أحــمل وزره
فـــأســـيـــر في وهن وفـــرط كـــلال
أواه من عـــمــــر تســـرب من يدي
أواه مـن وزري ومـن أحــــمـــالي

. . .

(١) أعاصير وأنسام ص ١٠٩ .

يـــا بـــرزخ الأرواح هـــأنـــذا عـــلـــى
شط الحـــيـــاة أخب في بلبـــالي
وســفــينة المــوت المــحــتم قــد دنت
وشــراعــهــا المنشــور صــار حــيــالي
في غــمــضــة أو شــهــقــة أغــدو بهــا
في الراحلين أجـــر في أســـمـــالي
وأصـــيـــر في واديك أعـــزل مـــفـــرداً
وأرى يقـــيناً مـــقـــعـــدي ومـــآلي
أترى مـــقـــري فـــيك جـــدب قـــائظ
أم أنـــه فـــي روضـــــــــة وظـــلال
أيكون من فـــوق الأرائك مـــضـــجـــعي
أم فـــوق جـــمـــر مـــحـــرق وصـــلال
وأحـل فـي أنـس يـسـكـن روعـــــتـي
أم فـي ظـلام جـــــــائـش الأهـوال
ويـحـى إذا دنـت المـنـون وقـــصـــرت
بي عن صـــعـــود المـــرتقى أعـــمـــالي

ثم يتوجه الشاعر إلى ربه في إشفاق المؤمن ووجل التائب ورجاء الموقن برحمة الله وفضله، سائلاً إياه أن يدخله في عباده الصالحين فيقول: [١]

ربـاه إنـي مـن لقـــائك مـــشـــفق
وجـل تـكـاد تـخـــور بـي أوصـــالي

(١) أعاصير وأنسام ص ١١٠.

ويكاد يسكتني الحـــيـــاء مـــصليًا
ويتـــوه عن بث الضــــراعـــة بالي
لكن رجـــائي فـــيك يا رحـــمن قـــد
أبقى عليَّ مـــرفـــرف الامــــال
فـــأنا وإن قـــصـــرت عـــبـــد مـــؤمن
بك تائب من ســـورة الصلصـــال
خـــذني بفـــضلك في عـــبـــادك آمنا
مـــمـــا أخـــاف مطهـــر الأذيال

وللشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي أبيات يبكي فيها نفسه، وينعي أجله، ويودع دنياه، فيقول:[1]

أمـــوت بعـــيـــداً عن دياري وعن أهلي
فـــمن يا ترى يبكي حـــوالي من أجلي
أمـــوت غـــريبًا في ربوع شـــبـــيـــبـــتي
ولا صـــاحب عندي يمـــرض أو يسلي
سيقتادني حتفي إلى الرمس صـــاغـــراً
ويقطع عن دنيـــاي ســـيف الردي حـــبلي

والزهاوي لم يزد على نعي نفسه في الأبيات الثلاثة، لكنه ركز فيها شعوراً قويًا بحب الحياة والتحسر على فواتها، وإحساسًا شديدًا بمأساة الغربة وفجاءة الموت.

ولقد جاءت (الأحوال) التي تبين هيئة موته دالة على هذه المشاعر: تأمل:

(بعيداً عن دياري وعن أهلي - غريبًا في ربوع شبيبتي - ولا صاحب عندي يمرض أو يسلي - صاغراً)

---

(١) انظر رثاء النفس في الشعر العربي، د. عبد الله باقازي ص ٧٥.

ويأتي رثاء النفس أحيانًا على هيئة وصية يوجهها الشاعر إلى ابنته كما فعل إيليا أبو ماضي الذي ينهى ابنته عن الصياح وشق الثوب حزنًا عليه، ويطلب منها أن يكون حزنها جليلاً صامتًا، وأن تزوره في قبره، وتنثر حوله الورد وتغرس بجواره بعض الياسمين، فيقول: [١]

أنا إن أغمض الحمام جفوني
ودوي صوت مصرعي في المدينة
لا تصيحي واحسرتاه لئلا
يدرك السامعون ما تضمرينه
وإذا زرتني وأبصرت وجهي
قد محا الموت شكه ويقينه
لا تشقي عليَّ ثوبك حزنًا
لا، ولا تذرفي الدموع السخينة
غالبي اليأس واجلسي عند نعشي
بسكون. إني أحب السكينة
قبل أن يسدل الستار عليه
ويواري عنك فلا تبصرينه
وإذا الساعة الرهيبة حانت
ورأيت حراسه يحملونه
زودي الراحل الذي مات وجداً
بالذي زود الغريب السفينة
نظرة تعلم السماوات منها
أنه مات عن فتاة أمينة

(١) رثاء النفس ص ١٨١.

وإذا مــــا جلست وحـــــدك في الليل

وهاجت بك الشـــجـــون الدفـــينة

فـــاهجـــري المـــخـدع الجـــميل وزوري

ذلك القـــبـــر ثم حـــيي قطينه

وانثـــري الورد حـــوله وعليــــه

واغـــرسى عند قلبـــه ياســـمـــينة

وللشاعر فاروق جويدة قصيدة بعنوان (سلوان لا تحزني) يوجهها إلى طفلته الصغيرة، يقول فيها: (١)

سلوان لا تحـــزني إن خــــانني الأجل

مـــا بين جـــرح وجـــرح ينبت الأمل

لا تحـــزني يا ابنتي إن ضـــاق بي زمني

إن الخطايا بدمع الطهـــر تغـــتـــسل

قـــد يصـــبح العـــمـــر أحـــلامًا نطاردها

تجـــري ونجـــري .. وتدمـــينا ولا نصل

وقد تكون قصيدة الرثاء وصية يكتبها الشاعر لزوجته كما فعل بدر شاكر السياب في قصيدته (الوصية) والتي يقول فيها: (٢)

إقبال يا زوجتي الحبيبة

لا تعذليني ما المنايا بيدي

ولست لو نجوت بالمخلد

كوني لغيلان رضي وطيبة

كوني له أبًا وأمًا وارحمي نحيبه

---

(١) المجموعة الكاملة ص ٣٥٦.

(٢) رثاء النفس فى الشعر العربى ص ٢١١.

وعلميه أن يزيل القلب لليتيم والفقير

وعلميه . .

ظلمة النعاس

أهدابها تمس من عيوني الغريبة

في البلد الغريب وفي سريري

فترفع اللهب عن ضميري

لا تحزني إن مت أي بأس

أن يحطم الناي ويبقى لحنه حتى غدي

لا تبعدي

لا تبعدي

لا . .

وفي (مرثية الطائر الحزين) وجه فاروق جويدة الخطاب إلى أمه .

كما كتب الشاعر هاشم الرفاعي قصيدته (رسالة في ليلة التنفيذ) مخاطبًا فيها أباه، مصوراً تجربة سجين ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه . ولم يكن الرفاعي سجينًا، وإنما تخيل هذه التجربة التي عاشها كثير من أبناء جيله، والتي كان ينتظر الرفاعي أن يعيشها، لكنه قتل دون أن يسجن! والقصيدة تصوير دقيق لمشاعر رجل ينتظر أن ينفذ فيه الطغاة حكم الإعدام، وقد أودعوه زنزانة كئيبة، وعهدوا بحراسته إلى سجان فظ، ومن أبيات القصيدة تبدو ملامح شخص هذا السجين، فهو رجل مؤمن، طيب القلب، لا يشعر بحقد نحو سجانه، بل يتعاطف معه، لأنه مجبر على تنفيذ ما أمر به من قبل الطغاة، وهو رجل متدين يجد في آيات القرآن راحته وعزاءه، وهو بار بوالديه، يبعث برسالته إلى أبيه، ويوصيه فيها بأمه، ويطلب منها الغفران .

وهو موقن باليوم الآخر، آمل أن يجمع الله بينه وبين أبويه في ظل عدالته ورحمته .

هذا الرجل المؤمن الطيب المتدين البار، سيق إلى الموت غير مدان، فماذا يمكن أن تقول رسالته؟

يقول هاشم الرفاعي: (١)

أبتـــاه مـــاذا قـــد يخط بناني
والحبـل والجـلاد منتظران

هذا الكتـاب إليك من زنزانة
مقـرورة صخـرية الجدران

لم تبق إلا ليلة أحيـا بها
وأحس أن ظلامهـا أكفاني

ستمر يا أبتاه. لست أشك في
هذا وتحمل بعدها جثماني

والليل من حولي هدوء قاتل
والذكريات تمور في وجداني

ويهدني ألمي فأنشد راحتي
في بضع آيات من القرآن

والصمت يقطعه رنين سلاسل
عبثت بهن أصابع السجان

ما بين آونة تمر.. وأختها
يرنو إلي بمقلتي شيطان

من كوة بالباب يرقب صيده
ويعود في أمن إلى الدوران

---

(١) انظر مهرجان الشعر الأول ص ١١٩. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب القاهرة ١٩٦٠م.

أنا لا أحس بأى حـــقـــد حـــوله
مـــاذا جنى فـتـمـسـه أضـغـاني
هـو طيـب الأخـلاق مـثـلك يـا أبـي
لـم يبـد في ظمـأ إلى العـدوان
لـكـنـه إن نـام عـنـي لـحـظـة
ذاق العـيـال مـرارة الحـرمـان
فـلربـمـا وهـو المـروع سـحنة
لـو كـان مـثـلي شـاعـرًا لرثاني
أو عـاد مـن يـدري إلـي أولاده
يـومًا وذكـر صـورتـي لـبـكـاني
وعلى الجـدار الصلب نافـذة بهـا
مـعنى الحـيـاة غليظة القـضـبـان
هذا دمي سـيـسـيل يجـري مطفـئًا
مـا ثـار في جـنـبي مـن نـيـران
وفـؤادي المـوار في نبـضـاتـه
سـيـكف في غـده عن الخـفـقـان
أبتـاه إن طلع الصـبـاح على الدنى
وأضـاء نـور الشـمـس كـل مكـان
واسـتـقـبل العـصـفـور بين غـصـونه
يـومًا جـديـداً مـشـرق الألـوان
وسـمـعـت أنغـام التـفـاؤل ثرة
تـجـري عـلـى فـم بـائـع الألـبـان

وأتى يدق ـ كـــمـــا تعـــود ـ بابنا

ســيـــدق باب الســجن جـــلادان

وأكـــون بعـــد هنيـــهـــة مـتـــأرجـــحًا

في الحـــبل مـــشـــدوداً إلى العـــيـــدان

أنا لا أريدك أن تعـــيـــش مـــحـطـمًا

في زحـــمـــة الآلام والأشـــجـــان

إن ابنك المـــصـــفـــود في أغـــلاله

قـــد سـيق نحـــو المـــوت غـــيـــر مـــدان

فـــاذكـــر حكايات بأيام الصـــبـــا

قـــد قلتـــهـــا لي عن هوى الأوطان

وإذا ســمـــعت نشـــيج أمي في الدجى

تبكي شـــبـــابًا ضـــاع في الريعـــان

وتكتم الحـــســـرات في أعـــمـــاقـــهـــا

ألـمًا تـواريـه عـن الـجـــيـــــران

فـــاطلب إليـــهـــا الصـــفح عني إنني

لا أبتـــغي منهـــا ســـوى الغـــفـــران

مـــازال في ســـمـــعي رنين حـــديثـــهـــا

وفـــعـــالـهـــا في رحـــمـــة وحنان

وإلى اللـقـــــاء تحت ظل عـــــدالة

قـــدســـيـــة الأحكام والمـــيـــزان

وهذه القصيدة - في رأيي - تعد أمًّا لقصائد بعدها في رثاء النفس، حملها أصحابها معاني إسلامية، وأدانوا فيها عصرهم، مثل قصيدة الشاعر مصطفى السباعي (وداع راحل) والتي يقول فيها: (١)

هيهات يا صاحبي آسى على زمن
ساد العبيد به واقتيد أحرار

أو أذرف الدمع في حب يفارقني
أو في اللذائذ والآمال تنهار

فما سبتني قبل اليوم غانية
ولا دعاني إلى الفحشاء فجار

أمت في الله نفسًا لا تطاوعني
في المكرمات لها في الشر إضرار

وبعت في الله دنيا لا يسود بها
حق ولا قادها في الحكم أبرار

وإنما حزني في صبية درجوا
غفل عن الشر لم توقد لهم نار

قد كنت أرجو زمانا أن أقودهمُ
للمكرمات فلا ظلم ولا عار

والآن قد سارعت دربي إلى كفن
يومًا سيلبسه بر وجبار

ثم يوجه الشاعر خطابه إلى أولاده فينهاهم عن الجزع على موته، ويلفتهم إلى أنهم في حمى الرحمن، يرعاهم ويحفظهم ما داموا مهتدين بهداه.

---

(١) شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث جـ ٢ ص ٤٦.

ثم يوصي أهل الحي بأولاده، ويذكر أمه، وزوجه، وإخوته، وأصحابه، ويودع الجميع حتى يلقاهم في جنان الخلد، فيقول:

بالله يا صبيتي لاتهلكوا جزعًا
على أبيكم طريق الموت أقدار
تركتكم في حمى الرحمن يكلؤكم
من يهده الله لا توبقه أوزار
وأنتم يا أهيل الحي صبيتكم
أمانة عندكم هل يهمل الجار
أفدي بنفسي أمًا لا يفارقها
هم وتنهار حزنًا حين أنهار
فكيف تسكن بعد اليوم من شجن
يا لوعة الثكل ما في الدار ديار
وزوجة منحتني كل ما ملكت
من صادق الود: تحنان وإيثار
عشنا زمانًا هنيئًا من تواصلنا
فكم يؤرق بعد العز إدبار
وإخوة جعلوني بعد فقد أبي
أبًا لآمالهم روض وأزهار
أستودع الله صحبًا كنت أذخرهم
للنائبات لنا أنس وأسمار
الملتقى في جنان الخلد إن قبلت
منا صلاة وطاعات وأذكار

وفي مثل الزنزانة التى تخيلها هاشم الرفاعى قضى الشاعر إبراهيم عزت ثلاث سنوات، كان يرى أطياف الموت فيها ليل نهار، إذ يؤخذ بعض أصحابه ليقتلوا، ويعذب الآخرون حتى يشرفوا على الهلاك، فى ساحات يحصد الموت فيها الأرواح حصداً.

ويبدو أن الشاعر كان ينتظر موته بين لحظة وأخرى في هذا الجو الرهيب، فكتب مرثيته، التى يتجاوز فيها حد التسليم بقضاء الله والرضا بالموت في سبيله إلى مستوى الشوق إلى لقاء الله، حبًا له، وأملاً في رحمته، واستبشاراً بما أعده الله لأحبابه في الجنة من النعيم.

يقول إبراهيم عزت في مرثيته: [١]

أغمض عيني ولقني اسم حبيبي

فأنا سأموت

سأعود إليك فلا تبك

واضحك حتى تملأ أصداء الفرحة كل الكون

سأعود إليه

فأنا المشتاق إلى لقياه

والحور أراها يا صحبي

الحور تنادى سيدها

تخفى الطرف بطرف الثوب

وأشم مع العطر شذاها

فاتنة من أنوار القدس

تضيء ربوع القلب ببسمتها

والعقد الأحمر فوق النحر

---

(١) ديوانه «الله أكبر» ص ٥٣ - بيروت ١٩٧٥م.

يا فاتنتي ما هذا السحر

كلماتي لفت بحيائي

والقلب يرد نبض القلب

والحور تنادي سيدها

في صوت رقت نغماته

وانسابت تصنع في الأعماق

حكاية حب

وبعد هذه الصورة الجميلة التي رسمها الشاعر بكلماته للحور العين اللائي ينتظرن الشهداء، يتخيل الشاعر ما يمكن أن يحدث في معسكر الاعتقال، وما سيفعله ضابط السجن الذي لا يعجبه أن يموت السجين قبل أن يشبع رغبته في تعذيبه، وإجباره على الإقرار بما لم يفعل، فيقول:

هرب المسجون من القضبان

عبر الأسوار ولم يدركه السجان

لم يهرب

الصوت يقول:

سيدنا - إن فلانًا قد مات

كيف يموت؟

ويدوس الغر على نابه

لم تنته بعد مهمتنا

في كل مقام عز به كبر أحمق

وأنا وأنا

ثم يرد الشاعر على هذا الضابط المغرور، ويحذره من دموع الأطفال الذين قتل آباءهم، فهذه الدموع ستكون طوفانًا، وأصوات الأطفال ستصير بركانًا،

وسيلقى هذا المغرور وأمثاله ما يستحقونه من العقاب.

يقول الشاعر:

يا حسرة من بأناه يعاند

سطوة سيده

قولوا للأبله لن يرجع

فاحذف رقمًا كان يضاف إلى الأرقام

وارقب في ليل العيد دموع الأطفال

تتجمع في سهل الطوفان

وارقب صوتًا كان يناغي بالأمس

يصم اليوم الآذان

وارقب ساعد بض غض

يجتاح صروح الأوثان

وارقب بعثًا للأكفان

ثم يختم الشاعر قصيدته بالمشهد الذي بدأها به، مشهد تلقينه الشهادة وتغميض عينيه، فيقول مخاطبًا صاحبه:

أغمض عيني ولقني اسم حبيبي

فالطائر يعزف تغريدًا لا يطلقه

إلا في لحن الرحيل

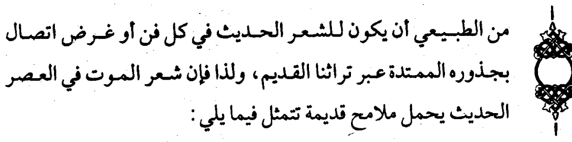
ولقد وفق الشاعر في الجمع بين تصوير الآفاق السامية والمواجيد الراقية التي تربط قلبه بربه عز وجل، والتعبير عن الواقع المؤسف الذي ترددت إليه أحوال الأمة متمثلة في استبداد الحاكم وتسلطه وتجبره. وفي هذا الجانب الأخير تعد هذه القصيدة مع غيرها وثائق تشهد على عصرها وتدينه بالظلم والطغيان.

الفصل السادس

ملاحظات ومناقشات

شعر الموت بين القديم والجديد

وقفات مع كتاب رثاء النفس في الشعر العربي



من الطبيعي أن يكون للشعر الحديث في كل فن أو غرض اتصال بجذوره الممتدة عبر تراثنا القديم، ولذا فإن شعر الموت في العصر الحديث يحمل ملامح قديمة تتمثل فيما يلي:

١ - ذكر الأهل والأصحاب، وتوجيه الخطاب إلى الأخ أو الرفيق، يبثه الشاعر أحزانه، ويشكو له بعض آلامه.

٢ - حضور المرأة الواضح في شعر الموت زوجة أو أمًا أو ابنة، ولم تذكر المرأة بوصفها متعة في شعر الموت حديثًا.

٣ - الحديث عن القبر، ووصفه أحيانًا.

٤ - شيوع أسلوب الاستفهام.

٥ - غلبة ضمير المتكلم.

فهذه الملامح لا تخطئها العين في شعر الموت قديمًا وفي شعر الموت حديثًا. [١]

أما الجديد في شعر الموت في العصر الحديث فإنه يتمثل فيما يلي:

١ - كثرة الشعراء الذين رثوا أنفسهم، وتعدد القصائد للواحد منهم أحيانًا كما رأينا عند حافظ إبراهيم، والمازني، وعبد الرحمن صان الدين.

٢ - لم يقتصر رثاء النفس في الشعر الحديث على طائفة بعينها من الشعراء، أما في القديم فقد كان رثاء النفس مقصوراً على الشعراء الفرسان والشعراء المعمرين.

٣ - تجربة الموت التي دفعت الشعراء إلى رثاء أنفسهم في الشعر الحديث تجربة متخيلة أو متوقعة غالبًا، وليست تجربة حاضرة إلا نادراً، والسبب في ذلك أن الفروسية لم تعد مرتبطة بالشعر في العصر الحديث، أما في القديم فقد كانت أغلب التجارب الدافعة إلى رثاء النفس تجارب حاضرة معاشة. فمالك بن الريب مثلاً رثا نفسه وهو جريح بين الصفوف، كذلك رثاء أبي فراس والمعتمد

---

(١) راجع الموت فى الشعر الجاهلي، د. حسن عبد السلام.

بن عباد، وعبد يغوث الحارثي، وجحدر بن معاوية، كلهم رثوا أنفسهم وهم في مواجهة الموت فعلاً[١] .

ولم يتعرض أحد من شعراء العصر الحديث الذين رثوا أنفسهم لمثل ما واجهه أولئك، فرثاء العقاد وشكري والمازني وحافظ وأبي السعود وإيليا أبي ماضي وهاشم الرفاعي أنفسهم كان الدافع إليه تخيل الموت أو توقعه، وربما كان إبراهيم عزت هو أقرب شعراء العصر الحديث من مواجهة الموت فعلاً عندما رثى نفسه وهو سجين.

٤ ـ خرج شعر الموت في العصر الحديث ـ في كثير من الأحيان ـ من إطار الذاتية، وتوحد الشاعر فيه مع أمته، وأصبحت أحاديث الموت في الشعر شاملة الأمة شمولها للفرد.

٥ ـ تجاوز شعر رثاء النفس عند الشعراء الملتزمين إسلاميًا في العصر الحديث حدود التعبير عن الآلام النفسية والهموم الشخصية، وحمل ما يمكن أن نسميه شهادة على العصر، ونقداً لنظمه السياسية والاجتماعية، اقرأ مصطفى السباعي ـ وهاشم الرفاعي، وإبراهيم عزت وفاروق جويدة.

٦ ـ يتحول رثاء النفس إلى رثاء للأمة في مواضع كثيرة من شعر فاروق جويدة الذي ينضح شعره بمرارة الاغتراب ويرشح بأنين الأسى ومن قصائده التي يرثي فيها أمته إذ يرثي نفسه، ويصف جراح قومه ومآسي زمنه: (وضاعت ملامح وجهي القديم ص ٣٠٣، ومرثية الطائر الحزين ص ٣٢١، وموتى بلا قبور ص ٣٤٢، وسلوان لا تحزني ص ٣٥٦، وعودة الأنبياء ص ١٩ . .)[٢] .

في (مرثية الطائر الحزين) يقول فاروق جويدة:

---

(١) راجع رثاء النفس في الشعر القديم من ظهور الإسلام إلى سقوط الأندلس. د. حسن عبد السلام بحث في حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة جامعة الأزهر. ١٩٩٦م.

(٢) المجموعة الكاملة .

ومضى القطار

والعمر يدفن بعضه بعضا

عشر حيارى ثم عشر للأسى

وختامها عشر الأماني الضائعات

العمر أصبح بين أيدينا بقايا من رفات

ونظرت حولي

لم أجد أحدًا يبادلني الكلام

فالناس ماتوا أو أصيبوا بالجنون

وسألت نفسي أين نحن . . ومن نكون؟

ومضيت أصرخ في القطار

الجنة الخضراء . . والفقراء والجوعى

وحلم الأمس - صيحات البطون

الناس حولي يضحكون

ورأيت أعينهم كبر كان يحاصرني

ويكبر ثم يكبر يحتويني

ثم يحملني الدوار

وتداخلت في العين ألوان الصور

النمل يعبث في ثيابي

والدماء تسيل من رأسي

وأفواج الذباب تحيطني

والناس حولي يضحكون

ألقيت نفسي فوق قضبان القطار

ومضيت أصرخ كيف ضاع العمر في هذا الدمار
جثث الضحايا والأماني الضائعات
على دروب الانتظار
والجنة الخضراء . . والأحلام والجوعى
وصيحات البطون
والناس حولي يضحكون
ومضيت أجمع بعض أشلائي وأوقف في القطار
مازال يجذبني القطار
وتجمعوا حولي وصاحوا :
ضل عن دين الفريق
خلعوا ثيابي . . أحرقوها في الطريق
ورأيت نفسي عاريا
وأخذت أجمع بين ضحك الناس
أشلائي وهم يتساءلون :
قد كان يومًا عاقلاً
ومضيت يا أماه أجري . . ثم أجري
ثم أصرخ في جنون
فلقد نسيت الاسم والعنوان يا أمي
تراني . . من أكون؟
سرقوا ثيابي . . أحرقوها
ثم راحوا يضحكون
ورجعت وحدي بالجنون

رجعت وحدي بالجنون

والطائر الحزين هو الشاعر نفسه الذي تقاسم عمره الأسى والضياع حتى صار بقايا رفات.

ومظاهر موته متجسدة في النمل الذي يعبث بثيابه، والدماء التي تسيل من رأسه، وأفواج الذباب التي تحيطه.

لقد قتلته الحيرة وضياع الحلم واتهام الناس إياه بالجنون، لأنه أراد أن يوقف قطار الحياة المهينة، الذي اغتال أسراب الحمام وقتل الأطفال، ودمر الأشجار والأزهار، ولكن القطار ظل في طريقه، وصفيره يعلو:

من مات مات .. من مات مات

من مات مات .. من مات مات.

ومأساة الحيرة والموت والحزن والضياع على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة هي الجو الذي تسبح فيه أكثر قصائد الشاعر، وهو في أكثرها يرثي نفسه ويرثي أمته.

يقول في قصيدة (عودة الأنبياء):

أنا يا رسول الله

لم أعرف مع الدجل الرخيص مكانتي

ماذا أكون؟ ومن أكون؟ أمام قبر مدينتي

وأموت في نفسي .. أموت

وأموت في صمتي .. أموت

وأموت في خوفي .. أموت

أنا يا رسول الله ـ أحيا كي أموت

قالوا بأن الموت موت واحد

وأمام كل دقيقة قلبي يموت

قلبي رسول الله في جنبي يموت

ماذا أقول وقد رأيت الأرض تفرح

بالمعاصي والذنوب؟

ماذا أقول وعمري الحيران

يطحنه الغروب؟

والحب في قلبي يذوب

ثم يختم الشاعر قصيدته متوسلاً إلى الأنبياء:

يا أنبياء الله

لا تتركوا الأرض الحزينة للضياع

لا تتركوا الأرض الحزينة للضياع

يا أنبياء الله . .

يا من تريدون الوداع

يا من تركتم للظلام مدينتي

قبل الرحيل تنبهوا

الأرض تمشي للضياع

الأرض ضاعت في الضياع

هكذا ألح الشاعر في تأكيد حيرته وموته وضياع أرضه وإظلام مدينته. مكرراً الألفاظ والجمل الدالة على حالة الضياع التي يحسها الشاعر في نفسه ويراها في أمته، حتي إن مادة (موت) تكررت في هذه القصيدة ست عشرة مرة، وتكرر مرادفها كـ(يقتل ويغتال ويحرق وانتحر) كما تكرر ذكر (القبور والجماجم والعظام والدماء) وتكرر التساؤل الحائر: ماذا أكون؟ ومن أكون وماذا أقول؟

وتناثرت في القصيدة ألفاظ (الجوع والفقر والحزن واليأس والجنون والتيه) وكلها أعراض لحالة الضياع التي ورد ذكر لفظها سبع مرات فى القصيدة، والتي

توسل الشاعر إلى الأنبياء أن يخرجوا أمته منها .

وهذا الشعر يهدف من تجسيد حالة الضياع إلى إيقاظ الأمة وإيجاد مخرج لها ، وعلى هذا لا يعد أصحابه متشائمين أو هاربين ، وتأخذ فكرة الموت في شعرهم وضعها الصحيح المتوافق مع الفكر السليم ، والدين القويم ، إذ يكون الحديث عن الموت من أجل تحسين الحياة .

وقفات مع كتاب
رثاء النفس فى الشعر العربى

بينما كنت أكتب هذا الكتاب وقع في يدي كتاب بعنوان (رثاء النفس في الشعر العربي للدكتور عبد الله باقازي . . . ويحسب لهذا الكتاب أنه رائد في موضوعه، ويحسب لصاحبه أنه جمع حشداً كبيراً من النصوص القديمة والحديثة في رثاء النفس .

ولأن موضوع الكتاب متداخل مع الفصل السابق من كتابي هذا قرأته وكانت لي معه هذه الوقفات :

١ ـ ذكر الكتاب أحد عشر شاعراً من شعراء العصر الحديث رثوا أنفسهم هم :

حفني ناصف ـ إسماعيل صبري ـ حافظ إبراهيم ـ أحمد شوقي ـ أبو القاسم الشابي ـ جميل صدقي الزهاوي ـ عبد الحميد الديب ـ إيليا أبو ماضي ـ هاشم الرفاعي ـ بدر شاكر السياب ـ أمل دنقل .

وغفل عن ذكر العقاد وشكري والمازني وعزيز فهمي ومحمود أبي الوفا وفخري أبي السعود ومصطفى السباعي وعبد الرحمن صان الدين وإبراهيم عزت وفاروق جويدة وقاسم مظهر وصالح الشرنوبي .

٢ ـ ترتب على الغفلة عن ذكر هؤلاء الشعراء قلة فى النصوص التي أوردها المؤلف بوصفها تمثل رثاء النفس في العصر الحديث لاسيما أن بعض هؤلاء الشعراء له أكثر من قصيدة في رثاء نفسه .

٣ ـ مع التسليم بأن أغراض الشعر تتداخل، وأن شكوى الكبر والتبرم بالحياة قد يؤديان إلى رثاء النفس، فإن بعض الأشعار التي أوردها صاحب كتاب (رثاء النفس في الشعر العربي) ليست من رثاء النفس في شيء من ذلك، مثلاً :

أبيات حفني ناصف :

برزت في سحر البيـا
ن وشاب فيه مفرقي
وقضيت عمري في البلا
غة سابقًا لم ألحق
وخدمت ديوان المعـا
رف مخلصًا بتفوق
والآن أذن بالرحيـل
مؤذن لم يشفق
عشرون يومًا قد بقين
وبعدها لا نلتقي
فتبلغي يا نفس بالـ
ـمفروض للمسترزق
فات الكثير من الحيا
ة وقل منها ما بقي

وقد فسر المؤلف هذه الأبيات على أنها تمثل الإحساس بدنو الموت، ويبدو في نظري - أن الشاعر قال هذه الأبيات مودعًا العمل في ديوان المعارف، وقبل أن يتركه بعشرين يومًا، لكن المؤلف قال: «تتلاشى المسافة بين الشاعر ولقاء الموت ضمن هذا الفاصل الزمني الضيق (عشرون يومًا)، حيث يقترب الموت أكثر، فلم يبق إذن سوى تهدئة النفس ووعظها في هذا المقام»[1] .

فهل اطلع الشاعر علي الغيب وعرف أنه سيموت بعد عشرين يومًا حتي يقول المؤلف ذلك؟!

---

(١) رثاء النفس في الشعر العربي ص ١٥٦ .

ومما أورده المؤلف في رثاء النفس - وهو ليس منه - بيتا أحمد شوقي في قصيدته التي قالها في رثاء حافظ :

قد كنت أوثر أن تقول رثائي
يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة
قدر وكل منية بقضاء

ومن ذلك أيضًا قصيدة عبد الحميد الديب والتي يقول فيها :

وداعًا شبابي في ربيع شبابي
وأهلاً حسابي قبل يوم حسابي
وما يبتغي من عاش غير موفق
ثلاثين عامًا في أسى وعذاب

فالقصيدة في الشكوى وليست من رثاء النفس . ومنه أيضًا : أبيات إسماعيل صبري التي يقول فيها :

إن سئمت الحياة فارجع إلي
الأرض تنم آمنًا من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأم
التي خلقتك للأتعاب

إلى آخرها .

٣ - أورد المؤلف قصيدة حافظ إبراهيم التي مطلعها :

آذنت شمس حياتي بمغيب
ودنا المنهل يا نفس فطيبي

وسكت عن قصيدته التي مطلعها :

سـعـيت إلى أن كـدت أنتـعل الدمـا

وعـدت ومـا أعـقـبت إلا التندمـا

والأخيرة أقرب إلى رثاء النفس من الأولى.

٤ ـ عوَّل المؤلف على دلالات الحروف والقوافي أكثر مما ينبغي وتوسع في ذلك حتى وقع في أحكام لا دليل عليها، (فتكرار حرف القاف في بعض الأبيات يدل على القلق، وقافية القاف المكسورة تعكس حالة القلق والانكسار)[1].

وقافية الباء المكسورة (تدل على حالة اضطراب عميقة ومعاناة حادة شديدة)[2].

(وهي إشعار بحالة الشدة والمعاناة الحادة في مواجهة الموت)[3].

(أما قافية القصيدة النونية والمنتهية بالهاء الساكنة فهي تحمل لنا أنة الشاعر العميقة الصامتة وهو يستقبل الموت في هدوء وسكينة)[4].

وتكرار حرف الشين في بعض الأبيات يدل على القلق[5] و(إن حرف الباء بدلالاته على الشدة يعكس إلى درجة كبيرة مقدار المعاناة والمكابدة للحظات النهائية ومواجهة الموت)[6].

(وإن حرف الراء يوضح مقدار الاضطراب في كثير من القضايا والمشاعر التي واجهها الشعراء وشعروا بها في لحظاتهم النهائية.)[7].

(والدال والحاء والعين والغين .. إلخ، كلها حروف تدل على الشدة والحيرة والغصة، ولذلك تكررت هذه الحروف في شعر رثاء النفس.)

---

(١) رثاء النفس ص ١٥٧.
(٢) السابق ص ١٧٧.
(٣) السابق نفسه.
(٤) نفسه ص ١٨٦.
(٥) السابق ص ١٧٢.
(٦) و(٧) رثاء النفس ص ٣٧٧.

ويبدو أن القائلين بهذا أخذوا ما قاله علماء الأصوات في صفات الحروف وجعلوا هذه الصفات دلالات ومعاني من غير دليل، ودون أن يكون لهذه الدلالات ضابط .

وينقض مذهبهم ورود أشعار كثيرة على القوافي التي ادعوا أنها تدل على القلق والحيرة والحزن، في الغزل والمرح والفخر .

فقافية القاف (الدالة على القلق) عندهم علام تدل في قصيدة شوقي (النيل) والتي مطلعها : [(١)]

من أى عـــهـــد في القـــري تتـــدفق

وبأى كف في المـــدائن تغـــدق

وقافية الباء الدالة على الشدة والمعاناة والانكسار في زعمهم علام تدل في قصيدة أبي تمام :

الســيف أصــدق إنبــاء من الكتب

في حــده الحــد بين الجــد واللعب

وعلام تدل في قول آخر :

أغـــار من نســـمـــة الجنوب

على مـــحـــيـــاك يا حـــبـــيـــبي

والدال الدالة على الشدة عندهم علام تدل في قول العقاد، من قصيدته مولد الحب[(٢)] :

ولد الحب لنا عـــاش الوليـــد

وحـــمـــاه الله من كـــيـــدالحـــســـود

وبدا في مـــهـــده بل عـــرشـــه

ضـــاحكًا يأمـــر فـــينا ويســـود

(١) الشوقيات جـ ٢ ص٦٤ .

(٢) ديوان العقاد ص ٢٩٨ .

والراء الدالة على الرعشة والاضطراب في نظرهم علام تدل في قول العقاد أيضاً[1] :

أحـبك حب الشـمس فـهي مـضـيـئـة
وأنـت مـضـيء بـالجـمـال منيـر
أحـبك حب الزهر فـالزهر ناضـر
وأنت كـمـا شـاء الشـبـاب نضـيـر
أحـبك حـبي للحـيـاة فـإنهـا
شـعـور وكم في القـرب منك شـعـور

فهذه أشعار تحلق في أجواء النعمة والعزة والمتعة والسعادة والحب، وجاءت على القوافي المزعوم أنها تدل على القلق والشدة والرعشة والمعاناة. وشأن القافية في هذا الأمر شأن الوزن، فسائر الأوزان والقوافي صالحة لسائر الأغراض والمعاني، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى. والله أعلم -.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

(١) ديوان العقاد ص١٧٢.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١ - إيليا أبو ماضي ، شعر ودراسة ، دار اليقظة العربية بيروت ١٩٦٣م.

٢ - الأعمال الكاملة ، لفاروق جويدة، مركز الأهرام للتوزيع والنشر القاهرة.

٣ - تظور الأدب الحديث في مصر ، د. أحمد هيكل، دار المعارف بالقاهرة.

٤ - ديوان أعاصير وأنسام ، شعر محمد عبد الرحمن صان إلدين الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م.

٥ - ديوان أغاني الكوخ، لمحمود حسن إسماعيل، دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٦٧م.

٦ - ديوان الله أكبر ، شعر إبراهيم عزت سليمان ، بيروت ١٩٧٠م.

٧ - ديوان البارودي، محمود سامي البارودي، وزارة المعارف بالقاهرة.

٨ - ديوان حفيف الغابة، لقاسم مظهر ، القاهرة.

٩ - ديوان حافظ إبراهيم ، دار العودة ، بيروت.

١٠ - ديوان الخطيب، فؤاد الخطيب، دار المعارف القاهرة ١٣٧٥هـ، ١٩٥٩م.

١١ - ديوان سيد قطب، جمع عبد الباقي محمد حسين ، دار الوفاء، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م.

١٢ - ديوان الشرنوبي، تحقيق د. عبد الحي دياب، دار الكتاب العربي بالقاهرة.

١٣ - ديوان الشموخ في زمن الإنكسار، عبد الرحمن العشماوي، الرياض ١٤١٢هـ.

١٤ - ديوان الشوقيات، أحمد شوقي، المكتبة التجارية بالقاهرة.

١٥- ديوان صالح جودت ، القاهرة ١٩٣٤م.

١٦- ديوان عبد الرحمن شكري، تحقيق نقولا يوسف، المعارف بالاسكندرية ١٩٦٠م.

١٧- ديوان عزيز فهمي، دار المعارف.

١٨- ديوان العقاد، أسوان ١٩٦٧م.

١٩- ديوان علي محمود طه، دار العودة ، بيروت.

٢٠- ديوان المازني ، مطبعة البوسفور - القاهرة.

٢١- رثاء النفس في الشعر العربي، د. عبد الله باقازي الفيصلية، مكة المكرمة، ١٩٨٧م.

٢٢- الشعر العربي المعاصر، د. عز الدين إسماعيل، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقهرة.

٢٣- الشعر قنديل أخضر، نزار قباني ، بيروت، ١٩٦٣م.

٢٤- الشعر العراقي الحديث، د. يوسف عز الدين، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، ١٩٦٥م.

٢٥- شاعر العروبة والإسلام، د. الجيوشي، مكتبة دار العروبة ١٣٨١هـ ١٩٦١م.

٢٦- شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، د. أحمد الجدع ود. حسني جرار، مؤسسة الرسالة بيروت.

٢٧- الشوقيات المجهولة، محمد صبري، دار الكتب ١٩٦٢م.

٢٨- فخري أبو السعود، حياته وشعره، عبد العليم القباني، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة.

٢٩- لسان العرب لابن منظور - دار المعارف - القاهرة.

٣٠ـ محمود أبو الوفا، دواوين شعره ودراسات بأقلام معاصرين الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣١ـ مهرجان الشعر الأول، الهيئة المصرية لرعاية الفنون والآداب، القاهرة ١٩٦٠م.

٣٢ـ الموت في الشعر الجاهلي، د. حسن أحمد عبد السلام، القاهرة ١٩٩١م.

٣٣ـ النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٩م.

دوريات :

١ ـ حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية ـ جامعة الأزهر ، بالقاهرة ١٩٩٦م .

٢ـ مجلة الدوحة القطرية ٤ شوال ١٤٠٢هـ أغسطس ١٩٨٢ .

٣ـ مجلة الشعر عدد يوليو ١٩٨١م القاهرة .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : الموت بين العموم والخصوص	٥ : ٢٨
(معنى الموت فى اللغـة -موت الأمة- أثر ذلك فى عواطف الشعراء- نوازل مـميتة وأحداث جـسيمة- الشعـراء يتحدثون عن مـوت الأمـة- البـارودى- شـوقى- حـافظ- الخطيب- الزهاوى- ميخائيل نعيمـه- محمود غنيم- نجيب الكيلانى- فاروق جويدة- عبد الرحمـن العشماوى- أحوال الأمة أرض خصـبة لنبتـة الحزن والثقـافة الوافـدة غذتها- شـعراء تمنوا الموت، وبعضهم قتلوا أنفسهم- وبعضهم حاول ذلك).	
الفصل الثاني : الموت أمنية	٢٩ : ٤٥
«البارودي والجرأة المحمـودة في الحرب- حب الحياة فطرة لا تغلب- تمنـى المـوت هربًا من الحـيـاة ويأسًا- أول من توسعـوا فى هذه المـعانى هم دعـاة التجديـد- تفسيـر ذلك وتعليله- تمجـيد الموت وتعجله فى سن مـبكرة- المازنى- صالح جودت- صالح الشرنوبى- فخرى أبو السعود».	
الفصل الثالث : الموت قضية	٤٧ : ٥٨
(حكمة المـوت- المحافظـون التزموا بمـقررات الدين، ولم تفقـد فكرة الموت عندهم جـلالها- البـارودى وموقـفه من الموت- شوقى وحافظ- التجديـد فى الشعر يواكبه جرأة فى تناول العقيدة- نماذج للعقاد، وشكرى وسيد قطب).	
الفصل الرابع : ما بعد الموت	٥٩ : ٨١
(النعش- قصيدة لمحمـود حسن إسماعيل- البلى- استنطاق الجماجم- قصيدة (عند رؤية جمجمة) لعبد الرحمن شكرى-	

(الجمجمة) لفخرى أبي السعود- (عاصفة فى جمجمة) لعلى محمود طه- البعث- (حلم بالبعث) لشكرى- (الخلود) لإيليا أبي ماضي (حقيقة البعث) لعبد الرحمن صان الدين).

الفصل الخامس : الموت تخيلاً ورثاء النفس ٨٣ : ١١٧

(البارودى يذكر نذر الموت- حافظ إبراهيم يرثى نفسه فى قصيدتين- عبد الرحمن شكرى يرثى نفسه- محمود أبو الوفا- العقاد يعزى نفسه- أربع قصائد للمازنى فى رثاء نفسه- قصيدة لفخرى أبو السعود- عبد الرحمن صان الدين وقصيدتان فى رثاء نفسه- أبيات للزهاوى- رثاء النفس فى صورة وصية- إيليا أبو ماضى يوصى ابنته- وكذلك فاروق جويده- بدر شاكر السياب ووصية لزوجته- هاشم الرفاعى وقصيدته (رسالة فى ليلة التنفيذ)- مصطفى السباعى يرثى نفسه- مرثية إبراهيم عزت).

الفصل السادس : ملاحظات ومناقشات ١١٩ : ١٣٣

شعر الموت بين القديم والجديد ١٢١

وقفات مع كتاب رثاء النفس في الشعر العربي ١٢٨

المصادر والمراجع ١٣٥

الفهرس ١٣٩